د. أنيس منصور

كيمياء الفضيحة





كيمياء الفضيحة!

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

كيمياء الفضيحة!

دار الشروق



كلمة أولى:
من آدم وحواء إلى حرب النجوم!

فى البدء كانت الفضيحة . .

كان الشعور بالفضيحة . . فقد كانت فى الجنة شجرة محرمة . ولكن الشيطان ضحك على حواء التى ضحكت على آدم ، فأكل الاثنان منها . . وفجأة اكتشفا أنهما عاريان تماما . . فراح الاثنان يتغطيان بأوراق الشجر . .

وبسبب هذه المعصية نزلا إلى الأرض . . أى بعد أن افتضح أمرهما . . وبعد أن ظهرا عاريين تماما كان لابد أن يخرجا من الجنة ويكفرا عن هذه الغلطة . . هذه الخطيئة . . وكانت حياتهما . . وحياتنا . . على هذه الأرض تكفيرًا وتطهيرًا واستمرارًا فى الخطايا والتكفير عنها . .

وعندما قتل قابيل أخاه هابيل . سئل : كيف حدث ذلك ؟

قال ما معناه : وهل أنا حارس لأخى ؟

يعنى لا أعرف من الذى قتله . ولم يكن غيرهما فى هذه الدنيا . فهو القاتل . .

وترك جثمان أخيه مكشوفا . . فجاء غراب ودفن غرابا قد مات . . وعرف هذا الأخ القاتل أنه أقل فهما من الغراب . .

وقبل ذلك عندما طلب الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم . فسجدوا . . إلا إبليس ، وكان كبير الملائكة ، رفض لأنه مصنوع من النور، وآدم مصنوع من التراب . والنور أشرف من التراب . ولكن فوجئ بأن آدم أهم عند الله من إبليس . . وأن آدم له العقل والقلب وحب المعرفة والقدرة على التطوير والإبداع . . وأهم من ذلك أنه ولد ليموت . . فالحياة بلا موت قاسية . . فعندما يطول العمر وتكثر الأوجاع يتمنى الإنسان الموت لأنه أرحم من الحياة . .

وكان آلهة الإغريق يحسدون الإنسان لأنه يموت . . أما هم فلا يموتون . . فحياتهم مملة . . بل إن آلهة الإغريق كانوا يجعلون أنفسهم بشرًا ليتمتعوا باللذات البشرية . . فهم يحسدون الإنسان على أنه فان وليس خالدًا . والخلود حياة واحدة مملة .

وشعر إبليس بأنه مفضوح . . بأنه جاهل . . بأنه مغرور . . وأن آدم قد مسح به التراب الذى خرج منه . . وأنه رغم التراب أشرف عند الله . .

وقد رأيت فى فيلم (الكتاب المقدس) الذى كتبه الشاعر الإنجليزى كريستوفر فراى وقامت ببطولته صوفيا لورين . . رأيت أن دم هابيل بن آدم قد تسلل إلى مياه الأنهار ليشربه كل أولاد آدم بعد ذلك . . فتكون الخطيئة فى دمهم . . فالإنسان مخطئ . وحياته خطيئة . ومحاولة هروبه من الخطيئة التى لها أول وليس لها آخر . .

ولولا فضيحتك أنت شخصيًا لكانت حياة جارك مملة . . فأنت متعته التى لا تنتهى .

وقد تكون الفضيحة لحظة . . كأن يسقط منك بنطلونك فى حفلة عامة !

وقد تكون الفضيحة عشرات السنين كأن يسقط البنطلون والجاكتة الشيوعية عن كل الدول التى كانت جزءًا من الإمبراطورية السوفيتية . . فقد جاء الزعيم جورباتشوف وفضح الانحلال والانتهازية والمخدرات والفساد الشيوعى . . فسقطت الشيوعية بعد سبعين سنة من الممارسة العنيفة . . وتفككت الدول التى كانت مربوطة بالحديد والنار والخوف . . فكان الاتحاد السوفيتى مثل الطائر ايكاروس الذى ألصقوا الريش فى جناحيه بالشمع . . فلما اقترب من الشمس تساقط كل الريش . . وتحطم ايكاروس ، كذلك كل الدول الشيوعية !

فهى أكبر فضيحة مذهبية سياسية اجتماعية فى التاريخ . .

أذكر أننى عندما كنت فى أندونيسيا سنة ١٩٥٩ قرأت فى الصحف أن الدولة قد أبطلت الأوراق المالية من فئة المائة والخمسين روبية . فى تلك اللحظة قفزت من المقعد إلى الجلوس على الأرض ، فهذا هو المكان المناسب لواحد خسر كل ما لديه من مال . . تمامًا مثل ايكاروس الذى سقط . . فقد سقطت . . وأحسست أننى عريان وبلا غطاء . . ولا أمل فى غطاء . . واكتشفت أننى غلطان . فقد نصحونى أن احتفظ بأوراق ذات فئات صغيرة . ولكن اخترت الفئات الكبيرة حتى لا يتكوم ويتكدس الورق فى جيبى . . ولكن ماذا كان يحدث لو تكدس الورق أو تكوم ؟ إنها غلطة وفضيحة ذكاء فقد توهمت أننى أذكى وأننى أقدر وأبعد نظرًا من الآخرين . فكانت هذه النتيجة . .

ومن الممكن أن تكون فضيحة دولية . . فوزير الدفاع البريطانى بروفومو الذى يملك أسرار الحرب والسلاح والمخابرات . هذا الرجل كان عشيقا لواحدة جميلة . . هذه العشيقة ، كانت عشيقة للملحق العسكرى الروسى . . فكانت أسرار بريطانيا فى جيب الملحق العسكرى . فضيحة ما بعدها فضيحة . وانكشف ضعف الرجل أمام الجنس ، وضاعت أسرار بريطانيا بسبب ذلك !

إنها ليست فضيحة رجل ولا فضيحة وزير ، ولكن عار دولة من أولها لآخرها . . وكارثة شعب استسلم لأحد رجاله وأتمنه على سر وجوده !

وغير بروفومو كثيرون مثل الرئيس كنيدى والرئيس نيكسون وولى عهد بريطانيا . .

* * *

وهناك فضيحة عصر . .

فشاعرنا العظيم المتنبى كان يعيش على مدح الخلفاء والأمراء . . إن أعطوه مدحهم ، إن منعوه شتمهم . . ثم يذهب إلى آخرين يمدح ويقدح . .

وكان المتنبى وهو أعظم شعراء العرب ، عاطلاً . . صناعته الشعر . . وسلعته المدح والهجاء . .

وحياة المتنبى فضيحة لزمانه كله . . فالشعر لا ثمن له والشاعر العظيم لا قدر له . . وإنما الشعر زينة الخلفاء والأمراء . . أما الشاعر نفسه فلا شىء . لا هو قادر على طبع ديوان له . . ولو فعل فإن الديوان لا يساوى وزنه ترابا . . وهكذا عاش مئات الشعراء عاطلين . وليس العيب فيهم . ولكن العيب فى زمانهم . . وليس نظم الشعر فى أى غرض فضيحة لهم . . ولكنها فضيحة العصر كله . .

والمقامات هى تأكيد لذلك . .

ففى مقامات بديع الزمان الهمذانى ومقامات الحريرى . . نجد البطل رجلاً يتظاهر بالفقر ويبهر الناس بعلمه ويضحكهم لكى يعطوه . . وهو يرتزق بعد أن يجعل نفسه أراجوزا بليغًا فصيحًا . . ثم يكتشف الناس أنه أبو زيد السروجى . . أو أبو الفتح السكندرى الذى يصف نفسه قائلا :

تعارجت لا رغبة فى العرج
ولكن لأقرع باب الفرج
وأحمل حبلى على غاربى
وأسلك مسلك من قد مرج
فإن لا منى القوم قلت اعذروا
فليس على أعرج من حرج

فالرجل ليس أعرج ، ولكنه يتعارج .. وليس بهلوانًا ، ولكنه يفتعل ذلك !

فليس الأدب ولا الشعر ولا البلاغة ولا الفصاحة ، ولكن إضحاك الناس وإثارتهم ليكتشفوا أنه خدعهم وضحك عليهم .. وهم ينتظرون ذلك . ويطلبون منه المزيد فى خداعهم .. وإلا فلن يعطوه مالا ..

ويسمى هذا الأسلوب فى التحايل على الرزق : الكدبة ..

وهذا شأن الظرفاء فى الأدب والشعر .. ليس الأدب وليس الشعر ولكن (الكدبة) أى التكسب بالأدب وبالشعر .. أى بأن يبذل الشاعر ماء وجهه من أجل الرغيف والكساء ..

ولم يعرف الأدب العربى رجلا تعيسًا مثل (أبو حيان التوحيدى) فهو دميم مثل الحريرى والجاحظ والبحترى وسقراط .. وهو كافر بالدنيا وبالناس لأنه لا يجد لقمة إلا إذا بهر الناس بعلمه وحكاياته .. فإذا لم يفعل مات على باب الخليفة أو الأمير ـ منتهى الهوان . وفى نفس الوقت فضيحة لكل الناس ولكل العصر !

* * *

وقد مضى على الإنسان حين طويل من الدهر كان يشعر بأنه سيد الأرض . والأرض مركز الكون ، إذن هو سيد الكون .. فالشمس تدور

حول الأرض . . والنجوم فى السماء عبارة عن (ترتر) فى ثوب الفضاء . . خلقها الله ليتفرج عليها الإنسان ويمتع ناظريه . . والفضاء أزرق لأن هذا اللون يريح العين . .

فالكون كله من أجل الإنسان . .

وظهرت نظريات فى الفلك تؤكد أن الأرض هى التى تدور حول الشمس . . وأن الشمس تدور حول نفسها . .

وأن الشمس بها فتحات تتسع لخمسين كرة أرضية . . وأننا نعيش فى منظومة . . إنها المنظومة الشمسية التى هى عبارة عن تسع كواكب تدور حول نجم واحد هوالشمس . . وإن هناك أقمارًا تدور حول هذه الكواكب يبلغ عددها ٥٤ قمرًا . . وإن الشمس ليست إلا نجما واحدًا ضمن ثلاثة آلاف مليون نجم آخر فى منظومة اسمها المجرة . . وإن فى الكون ألوف الملايين من المجرات . .

يعنى أن الأرض ليست مركز الكون . . وأن الإنسان ليس سيد الكون . .

وظهرت نظرية تقول : إن الكون لو كان فى مساحة أستاد القاهرة فإن المجرة التى نعيش فيها ليست إلا كرة بنج بنج عند حافة الأستاد . . .

وإن الإنسان ظهر على الأرض متأخرًا جدًا جدًا . . فالأرض عمرها أربعة آلاف مليون سنة . .

فلو فرضنا أن عمر الكون سنة . . أى إن الله خلق الكون فى الدقيقة الأولى من أول يناير ، فإن الإنسان يكون قد ظهر على سطح الأرض فى الدقيقة ١١ , ٥٧ مساء من ليلة ٣١ ديسمبر !

إنها فضيحة كونية فلكية للإنسان . . فليس هو المقصود من هذا الكون . . وليس هو مركز الكون ولا هو سيد الأكوان . . وإنما واحد من

الحيوانات العاقلة التى سكنت الأرض . . ونحن لا نعرف إن كانت هناك حضارات قبلنا على الأرض . . ولا نعرف أيضًا إن كان هذا الكون الذى عمره ١٦ ألف مليون سنة هو الكون الوحيد . . أو إن الله خلق أكوانا وأفناها ثم أنشأ غيرها . . فلا أنا سيد الكون ولا الأرض مركز الكون . . لا هذا الكون هو الكون الوحيد الذى خلقه الله . . ثم إن هذا الإنسان الذى يولد ويموت ويخترع كل يوم شيئًا جديدًا ، لم يجد علاجًا للأنفلونزا . . ولم يعرف بعد سر الخلية الصغيرة التى يتكون منها النبات والحيوان والإنسان . . ولا هو قادر على أن يطيل عمره وأن يمنع عنه الموت . .

إلى هذه الدرجة قد تجرد الإنسان من كل أزيائه الكاذبة وعظمته الوهمية . . ووقف عاريًا أمام نفسه : إنه عاقل عاجز ويقوم بتعويض هذا العجز بادعاء السعادة والأستاذية والخلود !

* * *

وظهرت نظريات تقول إن الإنسان أصله قرد . . لأنه شديد الشبه بالقرد . .

ولكن هناك حلقة مفقودة ـ هذه الحلقة هى فترة تطور القرد إلى إنسان . . هذه الحلقة هى التى لا نعرف كيف نهتدى إليها . .

وجاءت نظريات تؤكد أن القرد وإن كان شبيها بالإنسان إلا أنهما ليسا من أصل واحد . .

أى إن النظرية تقول إن الإنسان ليس سيد الكائنات . . وإنما هو واحد من الحيوانات قد تطور . .

ثم إن الحياة ممكنة على كواكب أخرى فى هذه المجرة التى يعيش فيها .

وفى هذه المجرة ألوف ملايين الكواكب مثل الأرض . . وليس

بعيدًا عن العقل أن تكون بها كائنات أعقل أو فى مثل عقلنا . ولكننا لا نعرف . .

* * *

وظهرت الماركسية التى ترى الإنسان حيوانا عاقلا . . حيوانا مثل كل الحيوانات الأخرى . . وعقله مثل أنياب وأظافر الحيوانات الأخرى . وهو يستخدم أظافره العقلية وأنيابه فى الحياة الاقتصادية والمسيطرة على أدوات الإنتاج والإنتاج . .

فليس هناك عقل ولا نفس . . وإنما الإنسان جهاز به عمليات كيمائية لا تتوقف . ومن هذه التفاعلات الكيماوية يكون النشاط الفكرى والفنى . . ويجب أن نحشد الناس تمامًا كأنهم قطيع . . وأن نضع لهم أنيابًا وأظافر ليدافعوا عن الرغيف وعن مكانهم فى المجتمع وفى الدنيا أيضًا . .

حيوانات نحن ؟ نعم . وأقل من ذلك . .

أما الدول غير الشيوعية فهى تنصب على الناس وتخدعهم بأن تقدم لهم المخدرات . . أى الدين . . فالدين أفيون الشعوب . والغرض من الدين هو حماية أموال وثروات الأغنياء . وفى نفس الوقت هناك وعد قاطع بتعويض الفقراء عن جوعهم يوم القيامة . . وكل ذلك أكاذيب . اخترعتها الرأسمالية والإقطاع معا لتسخير الناس وحشدهم للدفاع عن الأغنياء . .

ولذلك فالشيوعية تجرد الناس من هذا الأفيون وتأخذ من الأغنياء اللصوص ـ فكل الأغنياء لصوص ـ وتعطى أموالهم للفقراء . . بل وتلغى حق أى إنسان فى أن يملك . . فالكل أمام القانون فقراء . .

طبقة واحدة من الجياع الأذلاء العراة . .

وسقطت الشيوعية ، وأحس الناس أنهم مغفلون . .

وقبل أن تسقط الشيوعية شعرنا نحن فى الدول الأخرى أن الإنسان هو مزيج من العظمة والمعرفة . . وأنه يموت جوعا ولا يمد يده ، وأنه من أجل الكرامة يدفع أى ثمن . . وأهون ثمن يدفعه هو حياته ـ كنا نقول ذلك لأنفسنا ولغيرنا . ولكن عندما جاءت الشيوعية شعر الغرب كله والعالم الغربى ، بأن الشيوعية فضحت الإنسان . . فقد هدمت مشاعره . . وإيمانه بكرامة الإنسان وعظمة الإنسان . . ففى الدول الشيوعية مئات الملايين يعيشون بلا كرامة ولا عظمة . .

فليس الإنسان دائمًا ومهما كانت الظروف مزيجًا من العبقرية والكرامة والكبرياء ؟!

إنها فضيحة لنا جميعا شرقا وغربًا ! !

* * *

ثم جاءت مدارس التحليل النفسى تؤكد لنا أننا حيوانات من الداخل والخارج . . والإنسان للإنسان ذئب وكلب وحمار . .

فالذى فعلته مدارس التحليل النفسى أنها كشفت أعماق الإنسان . . فإذا هى مظلمة . . وإذا الإنسان شرس متوحش لا رحمة معه ولا رحمة عنده . . وإن التعليم والثقافة والحضارة كلها ليست إلا تعليما وتهذيبًا لأظافر ومخالب الإنسان . . وتركيبًا للفرامل على كل مشاعره . .

وفى الدنيا يقتل الابن أباه ، والأم ابنها . . وتقوم المجازر دفاعًا عن المذهب وعن الدين . . وتقوم الحروب بين الشعوب التى تستخدم أعظم ما وصل إليه الإنسان من علم فى تحقيق أحط مشاعر الإنسان وأحقر رغباته .

والناس فى الحروب كالسكير الذى يدخل البار . . إنه بكامل قواه

العقلية ذهب لكى يفقدها ويقع فى الأرض ويتمرغ ويقول : أنا مبسوط كده !

وفى الحروب يستخدم الإنسان كل أدوات القتال . . أحدثها وأكثرها تطورًا وقدرة على التدمير . . ويتباهى بذلك . . ثم يحارب ويقتل الألوف ويموت منه الألوف . . وفى نفس الدقيقة تدق الطبول والموسيقى تغنيًا بالحرب المقدسة دفاعًا عن الأرض المقدسة . . وإن هذه هى إرادة الشعوب التى هى إرادة الله . . أى إن القتل كان باسم الله . . والموت هنا وهناك دفاع عن شريعة الله . . وهكذا ترى أن القاتل شهيد والقتيل أيضًا . .

وكلها تفضح وحشية الإنسان ، مهما كانت عقيدته ومهما كانت طبوله ومهما كان سلاحه . .

* * *

وفى حياتنا اليومية أحداث صغيرة . ولأنها صغيرة فإننا لا نلتفت إليها . وبذلك لا نستخرج معانيها العميقة . أى التى فى أعماقنا ثم خرجت ليكون خروجها فاضحًا لنا . .

تقول الأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار إن الشعب الفرنسى قد فضح نفسه عندما أحب برجيت باردو وجعلها ملكة للإغراء والفتنة . . فالذى ينظر إلى هذه الفاتنة يجدها طفلة . . عيناها وشفتاها ودلعها . . كلها تؤكد طفولتها . ومعنى ذلك أن الشعب الفرنسى قد أحب طفلاً . ولم يحب أنثى ناضجة . لقد أكد ذلك فساد ذوق الفرنسيين وشذوذهم أيضًا ! لقد فضحوا أنفسهم . . أكدوا لنا دون أن يدروا بأنهم شواذ . . وأنهم مرضى ! .

وقالت أيضًا : إن شباب فرنسا قد فضح نفسه مرة أخرى عندما وقف طوابير بالألوف يتفرج على تابوت توت عنخ آمون . ذلك الملك الطفل . والذى لا قيمة له فى تاريخ بلاده . وإنما هو صاحب المقبرة الوحيدة التى

اكتشفوها سليمة . فالمقبرة هى التى وهبته الشهرة والحياة . . والشباب الفرنسى وقف مفتونًا بما يرى . . لماذا ؟ لأن الشباب الفرنسى يتفرج على نفسه ، فالملك توت طفل . . وهو صاحب التابوت الوحيد الذى لم يجد فيه الباحثون عضو الذكر . . بينما كل التوابيت الفرعونية قد بقى لأصحابها هذا العضو . . إلا توت عنخ آمون . . فهو نموذج للعجز الذى عند الشباب الفرنسى . وكان حب الشبان للملك توت ، هو حبهم لأنفسهم . . وكشف لهم . . لحقيقتيهم الجسمية والنفسية !

* * *

وأشهر فضيحتين فى الأدبين القديم والحديث فضيحة لوكريشيا والتى اتخذها الأدباء والشعراء والرسامون موضوعًا لهم . . ومن أحسن الذين تناولوا فضيحة لوكريشيا الأديب الفرنسى جان جيرودو عميد المسرح الفرنسى . فكتب مسرحية بعنوان (من أجل لوكرس) . وقد ترجمتها أنا إلى العربية بعنوان : (من أجل سواد عينيها) . .

ثم فضيحة أفسنتاسيا فى مسرحية للأديب السويسرى ديرنمات بعنوان (زيارة السيدة العجوز) . . وقد ترجمتها أيضًا إلى العربية وبنفس الاسم . وقد ظهرت على الشاشة بعنوان (الزيارة) . .

أما لوكريشيا فتقول الأساطير القديمة إنها كانت سيدة فاضلة . وإنها كانت حديث المدينة كلها . . وكان زوجها كوتيلوس فى إحدى الحانات يباهى أصدقاءه بجمال وفضيلة زوجته . . وفى نفس الوقت يتحدى الأصدقاء أن يجد الواحد منهم زوجته الآن فى وضع محترم . . وتضايق الأصدقاء . وذهب كل واحد إلى بيته ليجد امرأته فى حضن رجل آخر . . إلا لوكريشيا فقد كانت ترتب فراشها وتطهو طعامها . . وقد تضايق أحد الأمراء من ذلك . وقرر أن يمرغ لوكريشيا هى وزوجها فى الوحل . . فهى جميلة وهى فاضلة وهى مصدر غيظ وضيق لكل الزوجات . فذهب إليها

وفى يده خنجر . وهددها . وهدد حياتها إذا لم تستسلم له فسوف يقتل خادمها الزنجى ويقتلها ويلقى به فوقها . . ويقول للناس إنها كانت تخون زوجها ، وإنه لذلك قتلها . فاستسلمت له . وذهبت لوكريشيا إلى زوجها وطلبت إليه أن يدعو أربعة من أصدقائه . واعترفت لهم بما حدث . وإنها لا تستطيع أن تعيش لحظة واحدة بعد هذا الاغتصاب . وإنها تريد أن يظل اسمها رمزًا للشرف . . ثم انتحرت . ونهض زوجها وأخرج السيف من بطنها وقرر الانتقام . .

وفى مسرحية جان جيرودو تتفق جميع الزوجات على قضاء يوم خارج المدينة . . وذهب كل الأزواج وكل الزوجات . . إلا لوكريشيا التى تترفع عن مشاركة هذه الزوجات المنحلات ولكن الزوجات دبرن لها كارثة . . فقد بعثن برجل إليها فى البيت . . وأخبرن زوجها بأن يدرك زوجته التى تخونه . . وذهب ووجد هذا الرجل . .

وكان الهدف أن تصبح لوكريشيا منحطة سافلة كبقية النساء . . ولم تفلح المكيدة . . فلم تنحط امرأة ، وإنما انحطت مدينة كلها لم تستطع أن ترقى إلى مستوى لوكريشيا . . الرجال عاجزون عن تقويم النساء . . والنساء لم يفضحن واحدة منهن ، وإنما فضحن كل النساء وكل الرجال !

أما فضيحة انستاسيا بطلة (زيارة السيدة العجوز) . . فقد كانت تحب رجلاً . والرجل فى إحدى القرى والقرية فقيرة جدًا . وهى غنية جدًا. وجاءت تنتقم . .كانت أتوبيساتها محملة بالبضائع والطعام وأشبعت الشعب وأسعدته . . ثم تقدمت بمطالبها وهى إعدام الرجل الذى خانها وهجرها وحطم قلبها . . وإلا منعت عنهم المال والطعام . . وراحت القرية تحفر قبرًا للرجل ، والناس ذهابًا وإيابًا يشاهدون القبر . . بل إن الرجل الذى جاءت تنتقم منه قد شاهد أهل بلده يحفرون له قبرًا . .

إنها امرأة جبارة جاءت تنتقم مستخدمة ضعف الناس وعجزهم وحاجتهم إلى الطعام أكثر من تظاهرهم بالرحمة والشفقة والكبرياء . .

فالمرأة العجوز لم تفضح شخصًا واحدًا . . وإنما فضحت مدينة كاملة . . فضحت ضعفها وعجزها . . وجعلت الناس يتوارون خجلا من أنفسهم : إذ كيف يحفرون قبرًا لرجل ما يزال حيا ، ولأن امرأة جاءت تصفى حسابها العاطفى معه . . كيف يفعلون ذلك دون خجل ؟!

والجواب : الرغيف أقوى . .

* * *

إنها الفضيحة : إنه الشعور بالعار والعرى . . فى مرآتك أنت أو مرآة الشعب . . أو مرآة كل الشعوب . .

إنه شعور بالخجل والعجز لحظة . . أو ملايين اللحظات . .

ولكن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على أن يقع فى الفضيحة . . وأن يتجاوزها . . ليقع فى واحدة أخرى ويتجاوزها بعد أن يكون قد عبر عنها واتخذها عبرة . . ولكن الإنسان ينسى . . ولا يثبت على حال . .

قال الشاعر القديم :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه
وما سمى القلب إلا أنه يتقلب !

فالإنسان ينسى . . وقلبه ينقلب وعقله يبحث عن الغطاء ، وكما صنع الغطاء فإنه يسقطه . . ليضع غيره وهكذا .

فمن فضيحة آدم وحواء فى الجنة إلى فضيحة أمريكا وروسيا فى حرب النجوم !!

فقد كنا نظن أن سفن الفضاء والكواكب الأخرى والتسابق عليها . .

إنما هو من أجل البحث عن مكان أهدأ وكوكب أجمل . . سموا بالإنسان وعلوا بمشاعره ، وحرصًا على الحياة الأهدأ والأجمل على أرض غير هذه الأرض . .

وفجأة اكتشفنا أننا فقط إنما نغير مواقع القتال وبنفس الأسلحة ولنفس الأهداف !

إنها فضيحة على أعلى المستويات الفلكية !

أنيس منصور

يناير سنة ١٩٩٤

ذلك النوع من النساء: لا تحب أن تكرهها ولا تكره أن تحبها؟

لا يزال الإنسان يحطم الأصنام . . ولكنه قبل أن يحطمها فإنه يصنعها . ويجعلها صورة لمستقبله وأملا لأحلامه البعيدة . .

هل هى غريزة الإيمان عند الإنسان ! هل هى غريزة التدمير ؟

هل هو الشعور بالندم والذنب الذى لم يفارق الإنسان منذ هبط من الجنة إلى الأرض ؟ هل هو حرص الإنسان على أن يظل نادمًا ، ولكنه فى نفس الوقت لا يكف عن ارتكاب هذه الجريمة ؟

لقد استطاعت السينما بقدراتها الفريدة على التجسيد والتلوين والإثارة والإقناع أن تخلق للإنسان نجومًا جميلة من الرجال والنساء . . فجعلت أحلام الناس قريبة وحياتهم فى متناول أيديهم . . فالتفت قلوب الناس حول نجوم السينما ودارت أحلامهم وداخت وراءها . وإذا لم يستطع الناس أن يحققوا هذه الأحلام ، فهم يرونها . . وإذا لم يروها فهم يتوهمونها . . وهكذا استطاعت السينما أن تجعل الأحلام والأوهام والواقع شيئًا واحدًا .

ولا نهاية لنجوم السينما الذين ارتفعوا إلى السماء ، ثم بسرعة حفرنا لهم أماكن فى الطين وبلا رحمة ، ومتى ؟ بالضبط عندما نغلق قبورهم عليهم . . أى عندما يصبح هؤلاء النجوم ، عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم . .

مثلا : أرول فلين قالوا : إنه جاسوس نازى خائن لبلاده . .

تايرون باور قالوا : شاذ . .

المطرب بينج كروسبى : أدمن شيئين فى الدنيا : المخدرات وتعذيب أولاده !

مارلين مونرو : كانت قطعة من اللحم الوردى تحترق على نيران هادئة حتى اغتالتها المخابرات الأمريكية .

جوان كروفورد : سفاحة !! والمال بلا قلب وأخيرًا بلا عقل . .

شارلى شابلن : نجم الكوميديا كان من أحط الناس خلقا وسلوكا ؟!

ألفيس برسلى : نجم الروك ـ آند رول ـ عاش على المخدرات ومات بها .

ومثل ذلك يقال أيضًا عن نجوم السينما المصرية . . ولكن الحياء يمنع المصريين من أن يقولوا كل الحقيقة . . وتمشيا مع هذه التقاليد المحترمة فإننى أمسك عن ذكر قصة واحدة عن النابهين الذين أسعدونا عشرات السنين .

أرول فلين مات سنة ١٩٥٩ وظهرت كتب كثيرة تهدم هذا المثل الرفيع للرجولة الجميلة القوية . . كان مدمنًا ، وكانت له علاقات بأنواع منحطة من البشر .

ولم يكن المخرجون والمنتجون يعرفون لماذا يجىء « أرول فلين » مرحا فى الصباح . . وبعد ساعة أو ساعتين يتحول إلى إنسان آخر كئيب بليد . .

ويدعى أنه مرهق . . وأنه فى حاجة إلى أن ينام بعض الوقت . فيدخلونه فى غرفة ويغلقونها عليه لعله ينام بعض الوقت . . ويخرج من الغرفة بعد ساعة كأنه ولد من جديد . . وكانوا يسمونه نجم النوم السعيد . . والحقيقة أنه لم يكن النوم ، وإنما هى « وجبة » الإدمان القاتل التى جاء موعدها . وكان لابد أن يتعاطاها !

وكان له رأى فى اليهود وفى احتكارهم لصناعة السينما ، وتآمرهم على الأديان وعلى الشعب الأمريكى بصفة خاصة . . فظهرت كتب تتهمه بأنه جاسوس نازى وأنه خائن لبلاده !

* * *

ولما مات « تايرون باور » سنة ١٩٥٠ حزنت عليه نساء الدنيا : على جماله وشبابه ونظراته ولفتاته . وارتدين الحداد على أيام الحب والدلال مع نجمات الإغراء فى السينما العالمية : جودى جارلاند وماى زترلبنج وانيتا اكبرج ولانا ترنر .

ولم تكن هذه الوحوش الجميلة تعرف الكثير عن الجانب الآخر من حياته .

وتايرون باور لم يشأ أن يذهب إلى قبره كاذبا خادعا ، فكتب وصيته بمليون دولار لثلاثة من الشبان . ولما سألهم المحامى عن السبب فى أنه أوصى لهم بهذه الأموال والعقارات كان الجواب واحدًا : كنا أصدقاء .

أما « جين مانسفيلد » فهى الفتنة نفسها . . إنها أجمل جميلات الشاشة الأمريكية فى كل العصور . فبعض النقاد يرونها أجمل من مارلين مونرو . . واختبارات الذكاء تؤكد أن الأرقام التى حصلت عليها تجعلها من طبقة عبقرية . . فهى فى غاية الذكاء وحاضرة البديهة والنكتة . وأقوى امرأة أثرًا على كل الرجال من أى نوع . وهى صاحبة العبارة الشهيرة : لا يوجد رجل

أقوى من إصبعى الصغيرة . . قالت ذلك عن الرئيس كنيدى ، فكان لها فى اليوم التالى . . عن أخيه إدوارد كنيدى وجعلته يزحف على ركبتيه يأتى لها بحذائها بين أسنانه . .

وقد بدأت فضائح « جين مانسفيلد » عندما أعلنت ابنتها جين مارى «٢٨ سنة » أنها تؤلف كتابًا عن أمها . . ففى الكتاب أن أمها تتعاطى كميات كبيرة من المخدرات وأنها تبدل الرجال كما تبدل أحذيتها . وأنها انحنت عند قدمى « ألفيس بريسلى » لكى يغنى لها مجانا فى فيلمها «البنت لا تقاومه » .

وكانت ترغم ابنتها أن ترتدى ملابس الأطفال وتزحف على الأرض وهى تقول لها : أنت طفلة . ويجب أن تظلى طفلة !

وكانت « جين مانسفيلد » لا تحب أن تظهر مع ابنتها فى أى مكان حتى لا يعرف الناس سنها ! .

وكانت تؤمن بالفضيحة كأرخص وسيلة للدعاية . . ولذلك كانت تقوم بالأعمال الغريبة . . وكانت تستدرج مصورى الصحف لكى يلتقطوا لها الصور التى يتحدث عنها الناس . .

ابنتها وصفتها بأنها : سفاحة الرجال ، مصاصة دماء البشر ، لم تحب إلا اثنين : الرجل والدولار !

وعندما ماتت ذهبت ابنتها ووضعت هذه العبارة على قبرها :

أنت لا تحب أن تكرهها ولا تكره أن تحبها ! !

* * *

شارلى شابلن : الفنان الأديب الفيلسوف المخرج السياسى واحد من العظماء الذين ولدوا فى سنة ١٨٨٩ ـ مع الأدباء العقاد وطه حسين وعبد الرحمن الرافعى والمازنى وإيليا أبو ماضى وميخائيل نعيمة وكوكتو

والفلاسفة هيدجر ومارسيل وفتجنشتين والساسة هتلر ونهرو وكريبس . كان هو الآخر يتعاطى المنبهات والمقويات . ولما نشرت إحدى شركات الأدوية أنها تصنع فيتامينات خاصة لشارلى شابلن مكونة من رحيق الملكات وبعض أعشاب الجنزنج الكورية والشاى الأخضر وخلاصة كبد الحوت وعصير الدوم السودانى ، ثار شارلى شابلن ورفع أمره للقضاء الفرنسى ، واعتبر هذا تشهيرًا به وفضحا لخصوصياته ، وطالب بعشرين مليون دولار تعويضًا عن هذه الإهانة . وحكم له القضاء بمليون دولار !

والحقيقة أنه كان يتعاطى المنبهات والمنشطات والمقويات . . وبعد وفاة شارلى شابلن ظهر رجل من الهند كان يتولى التدليك والتنشيط بالحبوب والمراهم والحقن لشارلى شابلن . .

وظهرت له عشيقات فى العشرينيات وفى السبعينيات . . وكانت عشيقات السبعينيات ينفقن على عشيقات العشرينيات . وجاء فى خطاب بعث به « شارلى شابلن » إلى عشيقة عجوز : سيدتى . . لقد كنت كريمة معى . . وتحملت نزواتى فى صبر . . ولولا كرمك ما استطعت أن أحتفظ بكل تلك الجميلات الصغيرات . فهداياك كلها فى أعناقهن وأصابعهن . دام لى كرمك وتسامحك . . وسوف أظل عظيم الاحترام والامتنان لك !

أى إنها هى التى كانت تنفق الأموال والهدايا التى يغدقها على العشيقات الصغيرات !

بعض أصدقاء شارلى شابلن وصديقاته فضحوا العلاقات السرية التى كانت بينهم . .

ولما حاولت إحدى العشيقات الصغيرات أن تروى مغامرات شارلى شابلن معها ، التف حولها عدد من المحامين . واشتروا منها مذكراتها . وتعهدت ألا تكتب سطرًا واحدًا عن هذا الفنان العظيم !

أما « هيدى لامار » ، تلك النمساوية الجميلة التى ظهرت أفعى ساحرة فى فيلم « شمشون ودليلة » فقد كانت تمرغت على الأموال وفى دم الرجال . وتطاير الرصاص حولها طمعا فيها . ولأنها عرفت الكثير من الرجال لم تعد تطيق النظر إليهم . وإنهارت عصبيًا وجسميًا . . وابتعد عنها كل العشاق . . ودخلت وخرجت من المستشفيات العصبية . واتجهت إلى عشاقها القدامى فأنكروها . ولكن أحد الناشرين هداها إلى فكرة شيطانية ، وهى أن تكتب مذكراتها مع كل أصدقائها . ولكن قبل أن تنشر هذه المذكرات تتصل بهم وتسأل : كم تدفع حتى لا أذكر اسمك فى مذكراتى ؟

وجمعت مبلغًا كبيرًا من المال ، ثم كتبت مذكراتها وأشارت إلى أسماء عشاقها بالحروف الأولى . .

* * *

وكذلك « ريتا هيوارث » أجمل وأرشق نجوم السينما الأمريكية التى أحبها الناس فى كل أفلامها ورقصاتها : جيلدا وغراميات كارمن . . والتى تزوجها الأمير أغاخان وانجبت منه ابنتها ياسمين . . هى الأخرى اتجهت إلى الشراب فأدمنت وأسرفت . . ثم اتجهت إلى الإدمان . . وكانت لها مشكلة فنية منطقية : إنها عاشت نجمة على الشاشة . . والناس ينظرون إليها على أنها كذلك . . وفجأة لم تعد تظهر على الشاشة ، ولا تنسى أنها كانت نجمة . . ولكن الناس قد نسوها . . وحاولت بالمخدرات أن تجتاز هذه الفجوة من ماضيها الفنى الذهبى ، ومن حاضرها التعيس . . فلم يبق إلا أن تعيش ماضيها . . فكانت تقيم كل ليلة حفلة فى بيتها وترتدى ملابس فيلم من الأفلام . . وتقوم بنفس أدوارها وترغم ضيوفها أو زبائنها على أن يقوموا بالأدوار الأخرى . ولم يعد أحد قادرًا على احتمال هذا الجنون . . فتركوها وحدها . . وأدخلها

الأصدقاء مستشفيات الأمراض العقلية . . واستراحت بالجنون التام واستراحوا أيضًا !

* * *

أما « جوان كروفورد » فقد فضحتها ابنتها فى كتاب بعنوان « ماما العـزيزة » فى ٨٠٠ صفحة . . لم تكن ابنتها ، وإنما واحدة من أربعة أطفال تبنتهم جوان كروفورد . ماتت « جوان كروفورد » عن سبعين عامًا سنة ١٩٧٧ . أما ابنتها هذه فقد تبنتها سنة ١٩٤٠ . وفى هذا الكتاب روت حكايات عن التعذيب والضرب بالكرباج ومسح البلاط وإحراق الأصابع فى النار . . وعودة الأم آخر الليل ضائعة وتحطيم كل ما تقع عليه يدها . .

وحكت ابنتها « كريستينا » هذه أن أخاها كريستوفر هرب من البيت عامًا ، بسبب تعذيب أمه له . .

وتزوجت « جوان كروفورد » مالك البيبسى كولا ألفرد استيل ، وكانت تنتقل معه من مكان إلى مكان تدعو لشراب البيبسى ، وفى يوم تقدمت كريستينا إلى زوج أمها وعانقته . . فما كان من الأم إلا أن نادت ابنتها وانفردت بها فى إحدى الغرف وضربتها بمنتهى القسوة وهى تقول : هذا رجلى أنا ، اذهبى وهات لك رجلا !

أما ابنها كريستوفر فيقول إنها كانت تطلب إليه أن يمسح البلاط وهو فى الخامسة من عمره . فإذا لم ينجز ما طلبته منه بسرعة انهالت عليه ضربا بالكرباج !

وكان من عادتها أيضًا أن تدعو إلى بيتها الرجال بغير زوجاتهم . .

ولما توفيت فتحوا وصيتها فوجدوا أنها أوصت لابنيها التوءمين ، ولم توص بشىء لكريستينا وكريستوفر . وقالت فى وصيتها : إنهم جميعا أبنائى

تبنيتهم . ولكن لا أوصى لكريستينا وكريستوفر بشىء . إنهما يعرفان الأسباب !

أما الأسباب فقد عرفنا أنهما كانا يشكوانها للأصدقاء والجيران . وأنهما قاما بفضيحتها فى حياتها . . وكذلك بعد وفاتها !

وكانت نشأة جوان كروفورد فى غاية المرارة . فهى ابنة غير شرعية . وكانت أمها قاسية عليها وكذلك أبوها . . أو الآباء الذين قيل لها إنهم من المحتمل أن يكونوا آباءها . . أى واحد منهم . . أو هم جميعًا . وظلت جوان كروفورد تعتقد حتى الخامسة عشرة من عمرها أنه من الممكن أن يكون للطفل أكثر من أب . .

ولكن الممثلة الإنجليزية « فيفان لى » بنت الأكابر الأثرياء المحترمين زوجة أعظم ممثل فى العالم لورد أوليفييه ، ما الذى دفعها إلى هذا الانحراف وقد نشأت فى أسرة متوازنة لا محرومة من الحب ولا المال ولا التربية ؟

وقد بهرت العالم بدورها فى فيلم « ذهب مع الريح » كانت تقوم بدور سكارلت أوهارا . . وقفزت من قمة إلى قمة فى السينما والمسرح .

ولكن بعد وفاتها عرفنا حياتها المأساوية . . قد أدمنت الشراب والمخدرات ، وكانت المعارك دامية بينها وبين زوجها . وكان صوتاهما مسموعين عند الجيران وكذلك الأشياء الكثيرة التى يحطمانها عند منتصف الليل . . لقد أصابها نوع من القرف والملل . . التمرد على حياتها . . فكانت تكره كل شىء نظيف . . كل شىء يلمع . . ولذلك كانت إذا دخلت البيت وضعت يديها فى آنية الطعام . . ثم ألقت بالطعام على ملابسها وعلى الأرض .

واعترف زوجها لورانس أوليفيه أنه فى إحدى الليالى كاد يقتلها . فقد ألقى بها على الأرض وكاد رأسها يرتطم بالسرير . ولو حدث لماتت .

وكانت فى ذلك الوقت تعانى من انهيارات عصبية وكان زوجها يخشى الفضيحة إن هو أدخلها أحد المستشفيات . وفى نوبات الغضب كان يربطها بالحبال ويسد فمها بفوطة مبللة .

أما نجمة الإثارة فى بداية السينما الناطقة فهى « جين هارلو » التى توفيت فى سنة ١٩٣٧ . هربت من المدرسة فى سن الخامسة عشرة . وتزوجت فى سن الحادية والعشرين . واستمر الزواج ليلة واحدة . عندما جاءت أسرة العريس وأرغمته على الطلاق من هذه الفتاة المنحلة !

وتزوجت كثيرين . . وبعد ذلك تزوجت منتجا سينمائيًا . وبعد ثلاث ليال من الزواج أطلق على نفسه الرصاص . وترك خطابا يقول فيه : إنها وعدته بتشجيعه على أن يكون زوجًا قادرًا . ولكنها لم تستطع أن تنتشله من عجزه الجنسى فقتل نفسه !

وكان هذا الرجل يضربها بالعصا . وكانت العصا تتحطم على ظهرها وساقيها وصدرها . . ثم يلقى بمئات ألوف الدولارات عند قدميها . . ويطلب إليها أن تجمعها حينما ينهال عليها بالعصا !

وقد أدى هذا الضرب إلى إصابتها فى كبدها . . وهذه الإصابة ظلت توجعها حتى ماتت بالتهاب فى المثانة ثم انسداد تام لها . .

وتزوجت الممثل « وليام باول » وكان زواجا عاصفا فاشلا .

وفى جنازتها الطويلة الصامتة الحزينة راح المطرب نلسون أدى يغنى بصوته الجميل : يالغز هذه الحياة الجميلة . .

فانهار ثلاثة من الرجال فى أول وآخر الجنازة . وعرفنا فيما بعد أنهم كانوا عشاقها !

* * *

وأحب الناس المطرب « بنج كروسبى » فصوته هو الحب الحقيقى .

وهو الشوق والهيام واللوعة . . كل كلمة . كل نبرة هى شعلة من النار الهادئة للقلوب الجريحة .

ولكن أحد أبنائه كتب قصة حياته . . وقال إن والده كان يضربه بمنتهى القسوة . وكان يضربه بحزام من الجلد . فقد كان بنج كروسبى بخيلاً جدا . وكان يطلب إلى أولاده أن يغسلوا ملابسه وأن يخلعوا ملابسهم إذا دخلوا البيت حتى لا تبلى . .

وفى يوم فوجئ بأن واحدًا من أولاده قد ارتدى بدلة لم يشترها هو . . فضربه واتهمه بأنه سرق أمواله واشترى هذه البدلة . ولم يعط الابن فرصة لكى يقول له : إنها هدية من إحدى شركات الملابس . . وإن هذه الهدية تلقاها باعتباره ابنا لبنج كروسبى . . فكأنه هو الذى اشتراها له . .

واتصل الأب بالشركة يسأل إن كانت هذه البدلة هدية . . فتأكد له ذلك !

واعترف الابن بأن والده لا يدعو أحدًا إلى بيته ، حتى لا يرى الناس بيته المتواضع القذر . وحتى لا يجدوا آثار الضرب على وجوه أولاده . . وحتى لا تكون فضيحة !

وكان بنج كروسبى يطلب إلى حماته أن تعاقب أولاده بأن تحاسبهم يوما من كل أسبوع . . وأن تضربهم مرة فى الأسبوع .

* * *

ولم يحترم العالم كله نجمة مثل جريس كيلى أميرة موناكو التى ماتت فى حادث سيارة تقودها ابنتها . . فقد استطاعت جريس كيلى أن تظل محترمة لأنها كانت تملك عددًا من المجلات العالمية التى تفرغت لصورها وحياتها وأسرتها وأولادها . .

ولكن جريس كيلى أخفت علاقتها بكلاك جابل . . وعلاقتها

الصارخة مع الممثل راى ميلاند . . وكيف أن زوجة هذا الممثل هددته بالطلاق إن هو لم يترك جريس كيلى .

وفى أحد الكتب التى ظهرت بعد وفاة أميرة موناكو أنها كانت عاشقة مهذبة . . فقد كانت لها علاقات منظمة وسرية . ولم يفلح أحد أن يلاحظ شيئًا من كل ذلك . . فقد كانت تقوم بواجباتها الزوجية وواجباتها الاجتماعية ودورها كسيدة أولى للإمارة . .

وحتى الآن لم تظهر لها صور . . وإن كانت قد ظهرت لها حكايات . . ماتت فور صدورها لأن أحدًا ليس لديه أدنى استعداد لتصديقها !

* * *

فكأن ملايين المشاهدين يعرفون مقدمًا أن هؤلاء الذين يحبونهم على الشاشة يخفون وراءهم قصصًا بشعة . . فكأن المشاهدين والممثلين قد اتفقوا على شىء واحد : وإن هذا الذى يرون كذب فى كذب . . ولكنه كذب جميل . .

فالمشاهد لا يصدق ما يرى . . ولكنه يعيش ساعات جميلة مزيفة . .

والممثل يعيش أيضًا هذه الساعات الكاذبة ، فالكلام من صنع أحد المؤلفين ، والحركات من صنع أحد المخرجين وبقية الألوان من صنع الحلاقين . . فهى حكاية فنية كاذبة ، ولكنها جميلة . . وبعد ذلك يعود الفنان لتكون له حياته الخاصة ، وعنده أمل عظيم ألا يفضحه أحد وهو ما يزال حيا .

وهذه هى الأمنية الوحيدة التى تتحقق لمعظم النجوم ما دام النجم حيا ، ولكن الفضائح تبدأ حين لا يكون قادرًا على مواجهة أحد .

عـذابها : لذّتهـا !
لذّتـه : عذابهـا !

وفى السطور الأخيرة من « ألف ليلة وليلة » جاء هذا الختام على لسان «شهر زاد » :

ياملك الزمان ، وفريد العصر والأوان : « إنى جاريتك ولى (ألف ليلة وليلة) وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين ، فهل لى فى جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية » .

فقال لها الملك : تمنى تعطى يا شهر زاد .

فصاحت على الدادات والطواشية وقالت لهم : هاتوا أولادى !

فجاءوا لها بهم مسرعين . وهم ثلاثة أولاد ذكور واحد منهم يمشى وواحد يحبو ، وواحد يرضع ، فلما جاءوا بهم أخذتهم ووضعتهم قدام الملك شهريار . وقبلت الأرض .

وقالت : ياملك الزمان إن هؤلاء أولادك وقد تمنيت عليك أن تعتقنى من القتل إكراما لهؤلاء الأطفال فإنك إن قتلتنى يصبح هؤلاء الأطفال من غير أم ولا يجدون من يحسن تربيتهم من النساء .

فعند ذلك بكى الملك وضم أولاده إلى صدره وقال : ياشهر زاد والله

الرجل الألمانى يقول لزوجته التايلاندية لا تخرجى . فلا تخرج ! لا تردى على التليفون . لا ترد ! لا تكلمى جارتك . . لا تكلمها ! أريد أن يكون لى عشرة أطفال . فلا تشكو من الحمل والولادة !

وحكى لى د. عبد الفتاح درويش أن جاره قد تزوج من فتاة كورية . جميلة تفوح منها عطور منعشة . ولا يكاد الزوج يفتح الباب حتى تنحنى الزوجة . ثم تسبقه إلى الجلوس عند قدميه تخلع له الجزمة والشراب وتضع ملابسه على الشماعة . ثم تجلس عند قدميه . . وقد تعلمت اللغة الألمانية بسرعة . . وقد طبخت وأعدت المائدة . . والرجل لا يخفى سعادته بكل ذلك !

ويقول إن له زميلاً يعمل فى إحدى شركات الأدوية . وكان قد تزوج زميلة له . هذه الزميلة جميلة الوجه رائعة القوام . وإذا صافحتك دشدشت أصابعك . منتهى القوة والرجولة أيضًا . ولا يكاد زوجها يصل إلى البيت ويقول لها : هالو . . . حتى ترد عليه : السفرة جاهزة . . وعلى السفرة هو يقرأ كتابا وهى تمسك حاسبا الكترونيا وينتهى الطعام ويذهب كل واحد إلى فراشه حيث تكون كتب أو مجلات . أغرب من ذلك أن هناك جدولا قريبا من السرير لبرامج الزيارات للأسبوع القادم . فلا هى حياة زوجية ولا عائلة . . . ولا حتى صداقة أو زمالة . . ولا هو يعرف ما الفرق بين الرجل والمرأة . . ولا يرى أى سبب بأن يكون لهما رأى مشترك . . وإنما كل الآراء متصادمة . ولكى ينحسم الخلاف ووجع الدماغ ، فهى مرة تأخذ برأيه ومرة تأخذ برأيها . . وتمضى الحياة بلا متعة ولا عاطفة !

قال لى مهندس نمساوى موجود الآن فى القاهرة مع زوجته الأندونيسية : إننى أخجل كثيرًا مما تقوله زوجتى كلما جاءنا ضيوف . فهى لا تكف عن شكرى والامتنان لى ، فقد أنقذتها من الجوع والمرض . وجعلت لها قيمة ونقلتها من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين وإنما

لو قبلت الأرض تحت جزمتى ، فهذا أقل مما يجب أن تفعله . . ثم إننى سمعتها تقول لأولادى إن أباكم أعظم رجل فى الدنيا . . وإنه يعطينا كل ما لديه . . وإنهم أحسن من كل أطفال قارة آسيا . .

وقال لى : لو كانت زوجتى نمساوية مثلى فلن أسمع منها كلمة شكر . لى أنا ولا تقول حمد الله على أى شىء . . وإذا أخطأت لا تعتذر . بل إنها كثيرًا ما نظرت لى على أننى خدام السيادة . وأننى لا شىء وأنها هى التى جعلت منى شيئًا ولولاها ما كان ما كان . . يعنى بالاختصار أنا إنسان لا أساوى وزنى ترابا ، أما هى فقد حولت التراب إلى تبر، بمجرد أن دفعت فنجان الشوربة من جانب من السفرة إلى جانب آخر ليكون قريبًا منى . . فهذه الحركة التى استخدمت فيها إحدى أصابعها هى التى نقلتنى من عالم إلى عالم . . ومن الأرض إلى السماء . . تمامًا كاللوحة الشهيرة فى قبة كنيسة القديس بطرس . . ففى اللوحة نرى الله وقد لمس بإصبعه العدم فتحول إلى وجود . . فزوجتى هى التى خلقتنى من العدم . كيف ؟ هى التى تقول . بينما زوجتى الأندونيسية تكاد تعبدنى . . وأرى الصدق والوداعة والأنوثة والأمومة فى عينيها وفى أصابعها . . وعيناها مثل أظافرها مثل بشرتها لامعتان دائمًا . وهى معطرة دائمًا . . وهى أنثى مائة فى المائة !

وتحاول الحكومات الأوروبية الآن أن توقف الزواج من آسيويات . فأول قرار اتخذته السيدة مرجريت تاتشر هو ألا يحصل أى إنسان على الجنسية البريطانية لمجرد أنه تزوج إنجليزيًا . لابد أن تمضى خمس سنوات على ذلك . . وفى ألمانيا أيضًا . ولكن المرأة الأوروبية ـ الألمانية والبريطانية والسويدية ـ تحاول أن ترضى الرجل بأن تكون أكثر أنوثة . . . وبأن تبقى وقتا فى البيت وأن يكون عندها أولاد . . ولكن الرجل على يقين من أنها تمثيلية لكى تحتفظ بالرجل بعض الوقت . والرجل الأوروبى أو الأمريكى قد وجد الحل الجاهز المريح : إنه يفضلها صفراء !

وكان عميد المؤرخين أرنولد توينبى قد أعلن أن أهم حوادث القرن العشرين هو إقناع سكرتيرات نيويورك بالعمل فى يوم الإجازة !

فقد كانت العادة أن تدفع الشركات أجرًا إضافيًا للمرأة لكى تعمل فى يومى السبت والأحد . ولكن المرأة رفضت أن تبيع إجازتها بأى ثمن . وكانت المرأة الأمريكية تغيظ أصحاب العمل بأن تذهب يوم الإجازة إلى مكتبها ثم لا تعمل شيئًا !

ورأى توينبى أن قرار المرأة هذا هو أكبر دليل على استقلالها وحريتها ورفضها أن تبيع نفسها بأى ثمن . . وأن تكون حرة تمامًا فى وقت فراغها . . وإنها ليست للبيع !

من يومها والمرأة تأخذ كل يوم حقا وتضيف إلى نفسها كسبًا . . خارج البيت . ولكنها بنفس الدرجة لم تكسب فى داخل البيت ومع زوجها وأولادها . . وتركت أولادها للخادمات الزنجيات أو الملاجىء أو المستشفيات العصبية . .

وبسرعة زحفت المرأة الآسيوية إلى هذه البيوت المنهارة . . خادمة . ومربية . . وعشيقة . . ثم زوجة وعلى رأسها ريشة . هذه الريشة وضعها الرجل الأبيض الأشقر فى أوروبا وفى أمريكا ، وليس قبل وقت طويل أن تعدل المرأة الغربية خطوطها وخيوطها وأنوثتها . .

والمعركة قد استؤنفت فى بريطانيا وفى أمريكا . .

والرجل يريد حقوقه ـ لا أكثر !

والمرأة تريد حقوقها ـ لا أقل !

وسوف نرى . .

أخيرا رأيت الذين هبطوا من السماء !

أول رائد فضاء رأيته هنا فى القاهرة جاجارين . . قصير القامة . باسم الوجه . . جندى بسيط لا يعرف بالضبط ما هى المعجزة العلمية التى حققتها بلاده فى الفضاء الخارجى هو قال ذلك . . فهو ليس أكثر من سائق تاكسى . . التاكسى فى السماء والدريكسيون فى الأرض يحركه ألوف العلماء . . وهو إنسان ساذج أيضًا لأنه عندما عاد إلى الأرض قال . ولكنى لم أجد الله .

هذا الإنسان البسيط تصور أن الله سبحانه وتعالى سوف يكون فى انتظاره على ارتفاع ٣٠٠ كيلو متر من سطح الأرض . . وهو لا يعرف أن الكون وراءه مترام إلى مليون × مليون × مليون × مليون مليون ألف مليون × ألف مليون × ألف مليون كيلو متر « آخر إحصائية سوفيتية لاحتمال أن تكون هذه هى أبعاد الفضاء وراءنا أو أمامنا أو تحتنا أو فوقنا ! !

وفى القاهرة دعوت أربعة من رواد الفضاء مع د . فاروق الباز إلى العشاء فى فندق ميرديان . . أناس مثل كل الناس . . يأكلون الخبز والسلطة

ويتفرجون بشهية مفتوحة جدًا إلى نجوى فؤاد ويرون فى النظر إليها شيئًا مختلفًا جدا عن النظر من السفينة إلى كوكب الأرض .

وفى صباح اليوم التالى وجدت رواد الفضاء يقتسمون طبقا من الأومليت فسألت فاروق الباز : إن كان هذا طعامهم العادى ؟ فضحك ضحكته العالية جدًا وقال : إنه الفقر !

ولم أفهم فأكد لى أن رواد الفضاء يسافرون على نفقتهم . . ورحلاتهم إلى الفضاء بلا أجر . . إنهم متطوعون . وإذا مات الواحد منهم فليس له تأمين . . والموظف منهم يتقاضى من الدولة « بدل سفر » عن كل ليلة يبيتها خارج الأرض . . تمامًا كأنه انتقل من القاهرة وبات فى الإسكندرية .

وكان المرحوم يوسف السباعى وزيرًا للثقافة فأصدر قرارًا باستضافتهم فتعددت الأطباق أمامهم والمشروبات وظهرت البهجة على وجوههم . وعندما عادوا إلى أمريكا سلموا للحكومة كل الساعات الذهبية والماسية التى تلقوها مع فاروق الباز من دول الخليج . فالقانون الأمريكى يمنع الموظف أن يتلقى هدية بأكثر من سبعين دولارًا . وأمريكا تجمع كل هذه الهدايا المرتدة فى مزاد علنى كل سنة .

ورأيت رائد الفضاء السعودى الأمير سلطان بن سلمان . هو شاب ممشوق القوام أسمر رقيق وفى غاية الأدب . وإذا ضحك فإنه يضحك بكل خلية فى وجهه . وإذا صافحك فمن قلبه وإذا عانقك فبكل كيانه . وقال لى : إنه كان يقرأ كتابىَّ عن الفضاء الذين هبطوا من السماء . والذين عادوا إلى السماء . . وإن ما جاء فى هذين الكتابين وفى مقالات أخرى قد أشعلت خياله وجعلته يطيل النظر إلى النجوم .

أما الذى لم يكن فى خيالى أنا فهو أن أرى خمسين من رواد الفضاء الأمريكان والروس والألمان والإنجليز فى مكان واحد فى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية . . أكثر هؤلاء الرواد قد زاد وزنه وظهرت عليه

ملامح الحياة الأرضية . الأكراش والترهل وبطء الحركة . . فلم يعد أحد يطلب إليهم أن يحرصوا على الوزن وساعات النوم . وكانت معهم زوجاتهم أكثر رشاقة وأشد حرصًا على الحياة والأناقة وانتشارًا فى الأسواق . .

هؤلاء الرواد وغيرهم من العلماء قد حشدهم الأمير سلطان فى الاجتماع السنوى لاتحاد مستكشفى الفضاء لأمر هام . الأمر الهام : السماء للأرض . . السماء فى خدمة الأرض . . أو الفضاء ورحلات الفضاء من أجل حياة كوكب الأرض . . حياة النبات والحيوان والإنسان . . أى استخدام كل ما يكتشفه الرواد والعدسات والليزر ليكون فى صالح الأرض التى تزداد تلوثا والحيوان الذى يزداد مرضا والإنسان الذى يزداد عذابًا .

ثم موضوع هام آخر : ما الذى تفعله الدول من أجل سلامة رواد الفضاء ؟ حتى الآن لم تفعل شيئًا يذكر ، ولذلك اتحد جميع الرواد يطالبون بحقهم فى الحياة والعودة سالمين إلى الأرض . . فكثير منهم قد مات وقد احترق على الأرض . . وكثير منهم كاد يموت فى السماء ، ولكن دولته وكل الدول عاجزة عن أن تقدم له أى عون لأنه فى لحظات من الممكن أن يحترق هو وسفينته .

أما ملابس رواد الفضاء فالبدلة الواحدة ثمنها ثلاثة ملايين دولار . . وهى عبارة عن مصنع متحرك للبرودة والحرارة والضغط ومقاومة الأشعة المميتة وهذه البدلة تزن ١٥٠ كيلو جرام . . ولكن سفينة الفضاء نفسها من الممكن أن تحترق أو يتسرب منها الأوكسجين أو عقولها الالكترونية تهذى . . كل شىء من الممكن أن يتلاشى فى لحظات . . إن رواد الفضاء يمارسون رياضات عنيفة جدًا ويتولاهم العلماء بالعلاج الكميائى والإشعاعى حتى يتحول الرائد نفسه إلى جهاز لا رأى له ولا إرادة يقولون له : الآن تستطيع أن تنام فينام . . الآن يجب أن تصحو فيصحو . وهكذا فى الأكل والشرب ودخول دورات المياه . . كلها بالأمر . فلم تعد

له إرادة . . إنه تحول إلى آلة متحركة وسط أعداد هائلة من الآلات والعيون والبريق فوقه وتحته . . كثير من الرواد عاد إلى الأرض حيوانًا . . كان يوما ما إنسانا فدائيًا من أجل حياة البشر والحيوان والنبات وسلامة هذا الكوكب .

أكثر رواد الفضاء شهرة وخفة دم هو السوفيتى ليونوف أول إنسان سبح فى الفضاء وهو رئيس اتحاد مستكشفى الفضاء الروسى . . وكل شىء فيه دائرى . . عيناه وجفناه وشفتاه ورأسه وكرشه . . وهو خفيف الدم كثير المرح .

أعجبتنى كلمة ليونوف فى افتتاح المؤتمر يقول : إنه فى اليوم الأول للدوران حول الأرض فإن الرائد يكون مشغولا بالبحث عن مدينته . وربما عن بيته . وفى اليوم الثانى يكون مشغولا بالبحث عن بلاده كلها . وفى اليوم الثالث ينشغل بالبحث عن قارته . أما فى اليوم الرابع فإنه يكون مشغولاً بالنظر إلى كوكب الأرض كله . . وبعد ذلك يشعر بأن الأرض جميلة كأننا لن نرى الجمال إلا إذا ارتفعنا . . ثم يشعر الإنسان بحريته المطلقة لأنه يتنقل من دولة إلى دولة ومن قارة إلى قارة بلا حواجز . . بلا جوازات سفر . . ولا جمارك . . ولا حائل قومى أو دينى أو مذهبى . ويصبح هم الإنسان الأكبر هو الأرض وليس بيته ومدينته ودولته وقارته . ثم يشعر الإنسان بأنه عظيم لأنه استطاع بالعلم أن يحقق المعجزات ويشعر بأنه ضئيل جدًا أيضًا فالذى يعرفه قليل ، وكوكبه ليس إلا ذرة فى محيط لا نهائى من الفضاء وما لا نهاية له من الذرات الأخرى المبعثرة فى الكون وفقًا لقوانين ونظم لم نعرفها بعد ! كلمة رائعة ياليونوف .

* * *

أما السير أرثر كلارك المؤلف المعروف ومؤلف قصة وحوار وسيناريو الفيلم المعروف « أوريه ٢٠٠٠ » فهو رجل خفيف الدم وأحيانا يصبح من

الصعب على المستمع أن يعرف ما هى النكتة لأنه يتكلم بسرعة ، ولذلك ونحن نستمع إليه يجب أن ننتظر الأمريكان والإنجليز الذين يسمعونه فعندما نراهم يضحكون نضحك نحن أيضًا حتى لا يقال إننا لا نفهم .

ألقى محاضرة عن الرياضيات فى الكون أو المعادلات الرياضية . سوف أنقل لك عبارة واحدة دليلاً على جوهر المحاضرة ولن أطيل لأنه من الصعب جدًا أن أشرح لك معنى هذه العبارة .

نفرض أن أ = ب = ٣ وأن هذه المعادلة قد ضربت فى نفسها ما لا نهاية له من المرات وأن العقل الالكترونى جعل لها شكلا سوف تجد الصورة النهائية جبالا وأنهارًا وعيونًا وحيوانات وحركة لا تتوقف فى الكون حولنا !

هل فهمت ؟ ولكننى رأيت صور المعادلات وكيف يرسمها العقل الالكترونى بالألوان وكيف تخرج من هذه الرسوم أشكال لحيوانات وأناس لا أحد يعرف كيف ولا أحد يعرف الشكل النهائى بعد مليون سنة . . فإذا كانت هذه هى حركة المادة فى مجال صغير فكيف فى الكون ؟ وكيف أصبح هذا الكون من قبل وكيف من بعد !

لا تجهد رأسك . . فإن الأمانة هى التى اقنعتنى أن أنقل لك هذه الصورة كما سمعت وما استطعت أن أفهم .

* * *

ولابد أن رؤوسا تدشدشت بسبب اللف والدوران حول رواد الفضاء من قاعة إلى قاعة ومن كلية إلى جامعة فى أنحاء المملكة العربية السعودية ولكن لابد أن جميع هذه المحاضرات قد أمتعت وأسعدت المتخصصين ونحن فى انتظار أن تجمع فى كتاب واحد .

* * *

وجاء الفرج . . لقد تلقيت دعوة شخصية من رائد الفضاء الأمير

سلطان بالعشاء فى خيمة فى الصحراء مع رواد الفضاء بعيدًا عن كل وسائل الإعلام العربية والعالمية . . فهذه رغبة الرواد ورغبة حكوماتهم أن يكونوا على راحتهم وألا تنشر الصحف صورًا أو حكايات عنهم .

أما الطريق الصحراوى فقد انحرف عن الطرق المرصوفة الواسعة النظيفة المضاءة إلى قلب الصحراء . . لا نعرف إلى أين . . السيارات ضخمة مكيفة تعلو وتهبط فوق الرمال . . والرواد يشعرون كأنهم انتقلوا إلى كوكب آخر غير كوكب الأرض . . فلا توجد أية معالم . . وإنما السيارات توغل فى الرمال وتعلو وتهبط والسيارات تزمجر ونحن أيضًا . وفجأة توقفت السيارة تماما . لقد انغرست عجلاتها فى الرمال الناعمة وأحس الذين وصلوا إلى السماء فى دقائق وإلى القمر فى ساعات أنهم غير قادرين على الوصول إلى الخيمة . . إلا سيرًا على الأقدام . . وأحس الرواد كأنهم هبطوا فوق كوكب آخر وليست معهم أية وسيلة للاتصال بكوكبهم الأم لعل أحدًا يجىء لإنقاذهم . . أطباق طائرة أو كائنات آلية .

وبسرعة ظهر القمر فى السماء بدرًا . . وبسرعة نزل الذين كانوا فوق التلال يشاهدون الغروب فى سماء صافية . . وظهرت الفرق الشعبية تغنى ولا نعرف ماذا تقول باللهجة البدوية ، ولكن الإيقاع رتيب حزين . وحاول الرواد أن يقلدوا الراقصين الشباب . . بعضهم استطاع وأكثرهم افتقد المرونة والليونة التى عند هؤلاء البدو .

وتمددت سيقاننا على الأرض ووجدتنى إلى جوار رائد الفضاء ليونوف . سألته عن التغيرات فى الاتحاد السوفيتى وعن جورباتشوف فى روسيا وعن جورباتشوف فى العالم الشيوعى وعن المقاومة التى يلقاها فى بلاده . . وإن كان قد أتى بنظام جديد بعد أن اسقط النظام القديم . . وقال ليونوف . ولكن لم أستأذنه فى نشر شىء مما قال :

وجلست إلى جوار زوجة أحد رواد الفضاء إنها بالغة الحيوية ولغتها

الإنجليزية لا تساعدها كثيرًا على أن تقول ، ولكنها استطاعت أن تقارن بين المرأة العربية والمرأة الروسية والمرأة الأمريكية . . وعندها قدرة على التقاط الجانب المضحك من أى شىء ربما كان ذلك هو سر اللمعان فى وجهها وعينيها الذى يشغلك عن النظر إلى التجاعيد التى ظهرت حول رقبتها فجعلتها قريبة من سن زوجها الذى أنهى الخمسين عاما .

ووجدنا فى الخيمة الكبيرة أكواب لبن الناقة وأطباقًا من التمر . امتدت الأيدى طبعًا وانقطع التيار الكهربى ثم عاد النور وكانت الأيدى كلها قد امتلأت بالتمر كأننا انتهزنا الظلام لنأكل على راحتنا ففضحنا النور! ولما انقطع التيار الكهربى خرجنا جميعًا إلى نور القمر .

وكان السير كلارك يجلس على مقعد مرتفع لأنه لا يستطيع أن يتحرك . فقد كانوا ينقلونه على مقعد ذى عجلات . ولكن عندما حان موعد الرقص البدوى جاء شابان سعوديان يستند عليهما وراح يرقص على الوحدة السعودية . . والرواد يصفقون له و يلتقطون له الصور .

وفى إصرار تقدم أحد الحراس السعوديين وأمسك كاميرا أحد المترجمين المصريين وسحب منها الفيلم . فالكاميرات والصور للرواد فقط وحتى عندما ذهب يشكو إلى الأمير سلطان لم يشأ أن يعيد له الفيلم فهذه رغبات رواد الفضاء وحكوماتهم .

ثم تعالت الأصوات أن تفضلوا ! وتفضلنا نخوض الرمال فى الظلام إلى خيمة أخرى أعدت للطعام . أما الطعام السعودى فمعروف : لحم ولحم ولحم وأرز ولحم وأرز ولحم وأرز له أسماء مختلفة . فصرخت للأمير سلطان : ياطويل العمر سوف أموت من الجوع !

فقال : لماذا ؟

قلت : لأننى لا آكل اللحم .

قال : والسلطة ؟ والفاكهة ؟

قلت : آكلها ولكن عند نهاية الطعام الذى لا أجده !

وأمام الأمير تربع جمل صغير . . وحول الجمل لابد أنها لحوم الخراف ولكن على مستويات أدنى . . وجاء من يقطع الجمل بالشوكة والسكين ولكن أكثر الناس كان يأكل بأياديه رغم وجود الشوك والسكاكين .

هل هذا معقول ؟ لقد رأيت الروس والأمريكان يأكلون بصورة وحشية . . إنهم يريدون أن يأكلوا من كل شىء . . بل ويأكلون كل شىء ورأيت الذى يأكل معتمدًا على يده اليسرى يعتدل ويأكل معتمدًا على يده اليمنى . ومن أوجعته يداه ينكفىء على الأطباق والذى أوجعه ظهره امتلأ وتمدد على الأرض .

قلت للأمير سلطان : ياسمو الأمير اقترح حفر أربعين مقبرة على سبيل الاحتياط . والاتصال بالمسئولين فورا للاتفاق على شكل الجنازة التى تليق بالمرحومين من الرواد الذين هبطوا سالمين إلى الأرض وهبطوا مقتولين تحت الأرض !

انعوج الأمير الشاب فقلت له : سوف يموتون من التخمة . . انظر !

* * *

وفى حديث نشرته صحيفة « الرياض » لوالدة الأميرة سلطان تقول . إنها أهدت ابنها للوطن . . وإنها لا تعرف شيئًا عن الفضاء . . ولكنها تعرف أن يكون ابنها شجاعًا وأن يكون وطنيا مخلصًا .

أما إنه شجاع فلا شك فى ذلك . . أما إنه مخلص وعربى أصيل واسع الأفق فهذا يظهر بوضوح فى إدارته للندوة الدولية .

فقد دعانى الأمير سلطان لأن أشترك فى الندوة الدولية وأن اتوجه بسؤال أو أكثر لرواد الفضاء على مسمع من الجمهور فى نيويورك وواشنطن واتلانتا . . كلنا جميعا فى شبكة تلفزيونية واحدة نرى بعضنا البعض ونسمع .

وتوجهت بسؤال إلى رائد الفضاء الأمريكى ورئيس الاتحاد مشو يكارت ورائد الفضاء الروسى ليونوف والكاتب العلمى الكبير سير كلارك قلت . سؤال عن الجانب الخفيف أو المضحك من هذه الصورة . . فنحن حتى الآن لم نقرأ تفسيرًا علميا لهذا الذى ظهر أخيرًا فى روسيا . . أناس جاءوا من الفضاء . . أو أطباق طائرة . . ونحن نعرف أن شيئًا أخطر من ذلك قد وقع عند بداية القرن فى روسيا أيضًا . . فقد هبطت إلى الأرض سفينة فضاء احترقت قبل أن تصطدم بالأرض . . فأحرقت نيرانها الغابات والحقول وأضاءت روسيا وأوروبا أياما كاملة ـ هذا ما يقوله الروس فى كتبهم . . ثم إن عددًا من الرواد الأمريكان قالوا إنهم رأوا أشياء طائرة فى داخل سفن الفضاء وأشياء أخرى وراءها وحولها تطاردها . . ولم نقرأ لا تفسيرًا ولا رفضًا علميا لذلك .

وبسرعة رد رائد الفضاء مشويكارت قائلاً : ليس عندى ما أقوله فأنا قرأت مثلك فى الصحف .

وطلب الأمير سلطان من الرائد ليونوف أن يرد . فكان كلام ليونوف أنه هو الآخر لم يسمع إلا من التلفزيون ومن الصحف . . وإنه يعتقد أن هذه تخاريف أطفال وليس لها أى أسس علمية . . وهى مثل الذى يقال عن الأطباق الطائرة « فرقعات » وهمية ترددها وسائل الإعلام لإثارة الناس . وليست عنده صورة واحدة واضحة لذلك . . إن هذا كلام فارغ .

ثم اتجه الأمير سلطان إلى السير كلارك الذى شخط ونطر وقال هذا كلام فارغ من الناحية العلمية ويستطيع الإنسان الآن أن يتنبأ باقتراب أية سفينة فضاء من كواكب أخرى قبل وصولها إلى الأرض بربع ساعة وهذا ما لم يحدث فى حالة هذه الخزعبلات التى ظهرت فى روسيا . . وقال سير كلارك أيضًا : إن هناك أشياء غريبة تحدث حولنا وهناك أصوات فى الفضاء الخارجى . . وأشياء لا أعرف كيف أسميها تؤكد وجود شىء ما لا

نعرفه بعد وليس من المستبعد أن تظهر على الأرض . ولكن الشوشرة الإعلامية هى التى تفسد علينا متابعة مثل هذه الأحداث بهدوء وبالعقل .

وتحدث الأمير سلطان فقال متوجها إلى المستمعين فى الرياض ونيويورك وواشنطن واتلانتا : إن الأستاذ أنيس منصور كاتب عربى كبير وله مؤلفات كثيرة عن الذين هبطوا من السماء والذين عادوا إليها . . وهو الذى أشعل خيال ملايين الشبان العرب . . وأنا قرأت كتبه وأنا صغير . على كل حال هذه مناسبة للإعلان عن كتبه . وضحك المتفرجون الذين جمعتهم شبكة تلفزيونية واحدة .

شىء عجيب . .

هذا رائد فضاء يتعثر وسقط على الأرض رغم أنه يرتدى قميصًا وبنطلونًا وتحت قدميه رخام يلمع والشمس طالعة . . سألته هل تعثرت هكذا على القمر . .

أبدًا كنت أقفز والأصوات تجىء من الأرض تصرخ فى أذنى من الضحك وأصوات أخرى تنبهنى ألا أنسى نفسى وألا أنسى مهمتى . وصوت زوجتى يقول لى : إننى أدعو لك . . أما الذى أسقطنى على القمر فقد كان الضحك الشديد والمفاجأة عندما سمعت زوجتى تقول : الباب يدق لابد أن أفتح بسرعة إنها والدتك وأنت تعرف كم هى حساسة ولأية درجة .

سألت رائد الفضاء السوفيتى ليونوف الذى دار حول الأرض سنة كاملة قال : لم يكن يضايقنى إلا أن المركبة الفضائية ضيقة . ولكنها الدرع الوحيد الذى يحمينى حتى أعود إلى الأرض .

قلت له شىء فظيع جدًا أن تكون سجينًا على أعلى المستويات . . لا أعلى ولا أسفل . . سجن فقط ! سجن بلا أمل فى الفرار . . فالفرار هنا معناه الموت .

كيف كنت تأكل وتشرب ؟

فأشار بيده . إن هذه قصة طويلة وإن مجرد ذكرها يصده عن الطعام الذى كان أمامنا .

وأنا أعرف القصة . فقد تدرب الرواد السوفيت فى بدرونات تحت الأرض ولفترات طويلة على تحويل المخلفات الإنسانية إلى طعام وتحويل البول إلى ماء صالح للشرب . . وإن هذا ما حدث فى رحلة تيتنوف . وما سوف يحدث بعد ذلك عندما يستأنف الإنسان رحلاته إلى المريخ . فالسفر إلى المريخ يحتاج إلى سنتين ونصف السنة . تبدأ هذه الرحلة من الأرض ويتوقف الرواد بعض الوقت فوق القمر . . ليس فوق القمر . ولكن فى كهوف تحت القمر . . وفى هذه الكهوف يستعد الرواد للرحلة الطويلة بالتدريب على الأكل والشرب والجاذبية والضغط والأشعة الكونية. وبعد ذلك يتجهون إلى المريخ أمريكان وروس وألمان فالرحلة باهظة التكاليف لابد أن تتحملها الدول جميعًا . . فلم تعد هناك أسرار علمية بين الدول . . فكل قواعد اللعبة تعرفها كل الدول . والفرق بينها فقط هو فى تطبيق هذه النظريات .

إن الأجهزة الحديثة قد وسعت الدنيا حولنا . . فمن سبعة قرون كان العلماء يعتقدون أن الكرة الأرضية هى مركز الكون كله . . وأن الكون قطرة بالضبط ١٠٩٣٧٥ ميلا ـ تصور .

وفى سنة ١٦٢٠ أعلن الفلكيون أن قطر الكون كله ـ الذى مركزه الأرض أيضًا ـ هو بالضبط ٨٠٣, ٠٠٠, ١٧٠ أميال ـ بالضبط كيف ؟

وجاء الفلكى العظيم كوبرنيكوس وأعلن أن الأرض ليست مركز الكون . . أى إن الإنسان ليس هو سيد الكون . . وإنما الأرض كوكب يدور حول الشمس مثل بقية الكواكب . . وإن فى الكون ما لا حصر له من النجوم والكواكب الأخرى .

ولما تطورت العدسات وكبرت واتسعت اتسع الكون وامتد أيضًا وقالوا إن هناك شيئًا اسمه « السديم » هذا السديم هو جزيرة من جزر الكون . هذه الجزيرة تضم ألوف ألوف ملايين الملايين من النجوم وأضعاف هذا العدد من الكواكب مثل الأرض . . وإن فى الكون كله ألوف ملايين السدم وإن أقرب سديم إلينا يبعد عن الأرض ألف مليون سنة ضوئية « أى بالكيلومترات = ألف مليون فى ١٨٦ ألف ميل × ٢٤ ساعة × ٦٠ ثانية اضرب أنت على مهلك .

ولن ينسى تاريخ الفلك ذلك الطفل الصغير الذى اسمه ادويج هيل عندما كان فى الرابعة من عمره سأله أبوه : هل تذهب إلى السيرك أو تأكل آيس كريم ؟

قال : ضعونى فوق هذا التل كى أرى الشهاب الذى سوف يسقط الليلة من السماء .

ولما بلغ الحادية عشرة من عمره كتب مقالا عن كوكب المريخ نشرته كبريات الصحف .

هذا العالم الرياضى أدويج هيل هو الذى قال : ما الدين ؟ الدين هو هذا الذى نحس به بعيدًا عن الناس فأنت تفكر وتعمل بعيدًا عن الناس . . هذا الشعور العميق بالخير والحب والسلام وتقديس كل هذا الذى خلقه الله . . من حجر إلى شجر إلى حشرة . . كل هذه الأرض مكان للصلاة والاحترام اللانهائى لمن خلق ذرة الرمل . . وخلق ألوف ملايين السدم فى نظام لا نعرف عنه إلا القليل وفى حكمة لا نعرف منها إلا اليسير . . من هذا الجاهل المغرور الذى يقول : لا إله هناك . . فليتفضل بالجلوس إلى جوارى فوق جبل فى ليلة صافية ولينظر إلى السماء إن استطاع .

فضيحة الغرفة المجاورة لمكتب الرئيس!

الناس تسعدهم الفضيحة : فهى فرصة للشماتة فى الآخرين !
الفضيحة هى (الصرف الصحى) للعلاقات الإنسانية !
أمتع ما فى الفضيحة هو ذلك الجزء الذى لم ينشر !
معظم الناس يجدون متعة فى الفضائح ، والباقون يصدقونها !
الفضيحة : تطير . . والحقيقة : تزحف !
الحقيقة شىء نادر ، ولذلك يجب أن تحرسها بجيش من الأكاذيب !
لو لم تكن هناك خيانات زوجية ، لمات رجال الدين من الجوع !
الصحف الصفراء نصفها إعلانات ، والنصف الآخر فضائح !

* * *

إنها إذن الفضيحة التى انشغل بها الرأى العام الأمريكى فى بداية الحملة الانتخابية للرياسة . والمفضوح هو المرشح الديموقراطى بل كلنتون . فقد فصل أحد الموظفين ، وأقسم هذا الموظف أن يفضحه فلا يدخل البيت الأبيض . فادعى أنه كان على علاقة بخمس من النساء . إحداهن مطربة كباريه . ولكن المحكمة رفضت الدعوى . . فعادت

مطربة الكباريه تقول إنها كانت على علاقة دامت ١٢ عامًا . وعندها صور وتسجيلات . ودفعت لها إحدى المجلات مائة ألف دولار . . وفى مؤتمر صحفى جلست المطربة تحكى ما كان بينها وبين المرشح الديموقراطى . وظهرت قبل ذلك زوجته المحامية هيلارى التى لم تشأ أن تغير اسمها وتتخذ اسم زوجها مما أسقطه فى الانتخابات السابقة . . فقد وجد المواطنون الأمريكان أن هذا المرشح الذى لم يفلح فى أن يجعل كلمته تمشى على زوجته . . فكيف يكون له رأى وقوة فى المشاكل الدولية . . ورأى الملايين الزوجة والعشيقة ، أما العشيقة فقد صبغت شعرها الأسود فى لون البلاتين . ولها عينان خضراوان وساقان جميلتان . ولكن هذه الهيئة التى ظهرت عليها والمفردات التى تستخدمها جعلت صورتها تهتز أمام الناس . . ثم إنها ادعت أنها جامعية . . والحقيقة أنها لم تدخل مدرسة فمن الصعب أن تكتب اسمها . . وادعت أن لقاءها الأول كان فى فندق سنة ١٩٨٠ . . ولكن هذا الفندق لم يفتح أبوابه إلا بعد ذلك بسنتين . وظهرت زوجته الجميلة الذكية وهى واحدة من أكبر مائة محام فى أمريكا . وتحدثت ورأى الناس الفارق بين (الشرشوحة) وبين المثقفة الجميلة المحترمة والحريصة على زوجها . . واعترفت الزوجة بأن حياتهما معا كانت صعبة . ولكنهما رأيا معا مواجهة كل المشاكل وحلها . . وطلب التليفزيون من المشاهدين أن يختاروا بين الزوجة والعشيقة . والأغلبية اختارت الزوجة . .

ومن أربع سنوات ظهر مرشح ديمقراطى آخر هو : جارى هارت . واكتشفوا أنه كان خائنًا لزوجته . وهذه رذيلة يرفضها الناخب الأمريكى . وانسحب من انتخابات الرياسة . .

وقد أنكر المرشح كلنتون كل ما نسبته إليه هذه المطربة . انتهى . ولكن إذا ثبت أنه كذب ، فهذه هى النهاية . فأمريكا دولة قامت على أن الإنسان لا يكذب . وإذا ثبت أنه استسلم لهذه الفتاة ، فمعنى ذلك أنه

كان ضعيفا إلى هذه الدرجة ، فإن الشعب الأمريكى لن يأتمنه على مستقبله ومستقبل البشرية . . فما الذى يريده المواطن من الحاكم ؟

يريده أن يكون قويا . وأن يكون مخلصا وألا يكذب . وسوف يحترم الشعب شجاعته إذا اعترف بالخطأ . وقد حدث قبل ذلك فى سنة ١٨٤٤ عندما واجه المرشح الديموقراطى كليفلاند فضيحة أنه كان أبا لطفل غير شرعى . . وجاءه مدير حملته الانتخابية وسأله : ماذا أفعل ؟

فقال له كليفلاند : قل الحقيقة !

واعترف بالحقيقة واعتذر أيضًا . فقد كان كليفلاند أعزب . ولكن الشعب الأمريكى اختاره رئيسًا لأنه كان شجاعا ولم يكذب عليه واخترع الناس له أغنية يرددونها على لسان ابنه غير الشرعى . الأغنية تقول . ياماما . . ياماما . . بابا فين بابا فين . . إنه فى البيت الأبيض !

وكان له صديق اسمه فولسوم هو الذى يرعى هذا الطفل . وقد وافق الرئيس كليفلاند على أن يعترف بالولد . فكان اسم الطفل : أوسكار فولسوم كليفلاند .

وبعد ذلك تزوج الرئيس كليفلاند أخت صديقه هذا ، وأقيمت الأفراح والليالى الملاح فى البيت الأبيض . . لأول وآخر مرة !

ويظهر أن الشعب الأمريكى لا يغفر لرئيسه المقبل أية لخبطة فى الطريق إلى البيت الأبيض . . أما بعد ذلك فإن الشعب من الممكن أن يغمض عينيه وأذنيه . . كما إن الرئيس يكون قادرًا على حماية نفسه وإخفاء الحقيقة . وقد حدث كثيرًا .

فالرئيس أيزنهاور الذى اعتبره الشعب الأمريكى أبا له ، كان عاشقا للفتاة البريطانية التى كانت تقود سيارته الجيب أثناء الحرب . ويقال إنه فكر فى طلاق زوجته والزواج من هذه الفتاة . ولكن أصدقاءه منعوه . وكان الناس يعرفون هذه الحكاية الغرامية . . ولكنهم سكتوا .

والرئيس الأمريكى بوكانان تقدم لخطبة فتاة . ولكن أهلها رأوه لا يليق بها . . فقد كان سياسيا تافها . . ولكن الفتاة أحبته . . ولما رفضوه انتحرت الفتاة . ومنعوه أن يمشى فى جنازتها . . ولكن بعد ٣٧ عاما أثناء انتخابات الرياسة سنة ١٨٥٦ روت إحدى الصحف أن هذا الرجل لم يكن متزنا . فالبنت التى أحبها انتحرت . وهو أيضًا حاول الانتحار ولكن الحبل الذى تعلق منه قد انقطع . والدليل على ذلك أن رقبته معووجة وأنها تميل على الجانب الأيسر . ولكن الحقيقة ، غير ذلك ، فهو يرى بعين واحدة . أما العين الأخرى فلا يرى بها ، ولذلك فهو يدير رأسه لكى تتوسط العين الواحدة مجال الرؤية . . وهذا ما يجعله يميل برأسه ـ وهذا عيب خلقى لا علاقة له بالحب والزواج !

والرئيس هيز كان يحب أخته حبا شديدًا . ولا يستطيع الابتعاد عنها . وحتى عندما اضطر أن يبعد عنها اختار مكانا متوسطا بين مكان عمله ومكان إقامة أخته لكى يراها كل يوم . . وعندما تزوج أقامت أخته معه . وماتت أخته وهى تلد توءمين . وماتت قبل أن يكون رئيسًا . ولما تزوج قال لزوجته : الآن تستطيعين أن تقومى بنفس الدور الذى كانت تقوم به أختى !

ولم يعرف أحد ذلك إلا بعد انتخابه !

والرئيس جون كيندى : شباب وجمال وفلوس . وقد بالغت الشائعات فى علاقاته وغرامياته وفضائحه . ولكن كيندى كان مريضًا . وكانت شكواه من الانزلاق الغضروفى ومن آلام دائمة فى كتفيه . . آلام تصل إلى حد الصراخ الليلى . . وأكبر فضائحه هى قصة مارلين مونرو أجمل من خلق الله وأكثر النساء براءة وطفولة وبلاغة فى التمثيل . فقد ساقها حظها السيىء إلى الرئيس كيندى . وعرفت الدنيا هذه العلاقة . . وعرفت سفالة الرئيس كيندى الذى تخلى عنها لأخيه . . المخابرات اغتالتها لأسباب كثيرة فبركتها طبعًا !

ولم تكن مارلين مونرو هى الوحيدة فى حياة الرئيس . ورغم أنه اغتيل وزوجته إلى جواره . فقد اكتشفت الزوجة بعد ذهابه فضائح كثيرة جعلتها تسارع بالزواج من البليونير أوناسيس لتؤكد أنها تريد أن تنساه !

والرئيس جيفرسون كانت له عشيقة سوداء فعرف الناس وسكتوا ! ولما سئل اعترف . واحترم الناس ضعفه وصراحته . .

والرئيس فرانكلين روزفلت كان عشيقا لسكرتيرة زوجته . ولم يعرف الشعب الأمريكى ذلك إلا بعد انتخابه رئيسًا لأمريكا !

حتى الرئيس الأمريكى جورج بوش لم يسلم من الشائعات فقيل فى سنة ١٩٨٨ إن له عشيقة . ولكن لم يفلح أحد فى إثبات هذه التهمة !

وكذلك فى بريطانيا التى هى أكثر تشددًا من أمريكا . .

فقد تساءل الشعب البريطانى لماذا لم يتزوج إدوارد هيث رئيس الوزراء عن حزب المحافظين . والجواب : هو حر . ولكن الناس تساءلوا : نريد أن نعرف إن كان (رجلاً) أو أى شىء آخر !

ونشرت الصحف البريطانية صورًا لادوارد هيث عندما كان مجندًا فى فرنسا . . أى كانت له صديقات كثيرات . . وإنه يشرب ويرقص وإنه لم يكتف بواحدة . يعنى أنه رجل مائة فى المائة . . ولكنه فضل أن يظل حرًا. وليس رجلاً شاذًا . لأنه إذا كان شاذًا فمعنى ذلك أن رجلا آخر يتحكم فيه بينما هو يتحكم فى بريطانيا !

وعندما تأخر زواج الأمير تشارلز ولى العهد أتوا به فى التليفزيون يسألونه عن السبب . . لماذا هو الآخر لم يتزوج حتى الآن ؟ فكان جوابه . إنها مسألة نصيب !

والشعب البريطانى يريد أن يعرف لماذا تأخر زواج ملك المستقبل . هل هو شاذ ؟ ففى الأسرة المالكة شواذ كثيرون . . أو هو رجل ابن رجل لم

يجد البنت المناسبة . فراح الأمير يحكى حكايات فى التليفزيون غير لائقة . أو غير مهذبة . كان يقول : إن أمى حذرتنى أكثر من مرة أن أعود مبكرًا . . وأن اعتدل فى الشرب . . والرقص والعلاقات العاطفية . وقد وعدتها كثيرًا . ولكنى أحاول . . أى إنه رجل عادى جدًا . . وإنه ليس شاذًا . وإن الشعب البريطانى يجب أن يطمئن على ذلك !

* * *

أستاذنا عباس العقاد اعترض على زواج مصطفى النحاس باشا من السيدة زينب الوكيل . واندهش الناس من تدخل العقاد فيما لا يعنيه . ولكن العقاد أعلن أنه كمواطن يعنيه جدا هذا الأمر . فكل ما يتعلق برئيس الوزراء يعنى جميع المواطنين . لأنهم يريدون أن يطمئنوا على سلامة حكم وأحكام الرجل الذى يحكمهم . فإذا تزوج النحاس باشا فتاة صغيرة جميلة فإنها هى التى سوف تحكمه . . ولذلك يجب أن يعترض الناس جميعا على أن تحكمهم فتاة صغيرة . . وليس رئيس الوزراء . وقد كان النحاس باشا ضعيفا أمام زوجته الشابة . فقد كانت هى التى تحكم وهى التى تتحكم . . وكان العقاد على حق تماما !

ومن ٢٥ قرنا اعترف يوليوس قيصر بنقطة الضعف التى لا يقوى على التغلب عليها . فقد حدث أن كان فى حفلة كبرى لتتويجه أن تبول ابنه الصغير على ملابسه . . فنهض الوزراء يعالجون الموقف . ولكن يوليوس قيصر قال حكمته الشهيرة : اتركوه يفعل ما بداله . .

فأنا أحكم العالم وأمه تحكمنى وهو يحكم أمه !

وليس كل الساسة الكبار بهذه الصراحة ولا الشجاعة . ربما كان آخر الشجعان السيد سيسل يركنسون زعيم حزب المحافظين والعقلية الباهرة والرجل الوسيم . فعندما كان وزيرًا للتجارة أحب سكرتيرته . وأحبته . ووعدها بالزواج ثلاث مرات . ولكن الظروف لم تكن تساعده . . وخاصة

فى حزب المحافظين . ولما نجح حزب المحافظين فى الانتخابات من ٨ سنوات انشغل عنها . وطلب إليها أن تسافر إلى مكان بعيد . وسافرت إلى بلجيكا . ولكنها كانت حاملا فى الشهر الثانى . ولما بدأ يتنصل منها انتقمت منه فراحت تطلق الشائعات عن حبهما وإنها حامل . وأصبحت الشائعات حقيقة . وانسحب من زعامة الحزب ـ مع أسف الجميع ، ثم إنه أصدر بيانا اعترف فيه بالعلاقة واعترف ببنوة الطفلة وإنه سوف يساعدها ماليا . واختفت السكرتيرة وتوارى الزعيم . ولكن فجأة ومنذ أيام أعيدت الفضيحة مرة أخرى . فعشيقة يركنسون واسمها سارة قرأت فى إحدى الصحف أنها تقارن بينها وبين غيرها من العشيقات اللاتى شعارهن : يطبعن القبلات ثم ينشرنها . . فتقدمت إلى القضاء تعرض ما لديها من خطابات وصور . . وقرأت المحكمة الخطابات ورأت الصور . وأعلن القاضى أنها قصة حب حقيقية وقائمة على الاحترام والصدق . وعرضت سارة على المحكمة أن صحفا ومجلات طلبت منها هذه الصور مقابل نصف مليون جنيه . . وأنها رفضت ذلك احتراما لحبيبها . وأنها لو كانت تتاجر بهذه العلاقة لكسبت الكثير . .

ولكن الصحيفة رفضت أن تعتذر لها . ولا تزال القضية معروضة أمام القضاء !

* * *

أما الرئيس الأمريكى هاردنج ، فهو أغرب وأعجب رؤساء أمريكا . فقد كانت له غرفة ملحقة بمكتبه . . فى البيت الأبيض . وكان يلتقى فيها بعشيقته . وعلى الباب حراس شداد يمنعون أحدًا من الدخول وخصوصا زوجته . . أما هذه الغرفة فمهجورة وبها بقايا الأدوات . . المقاعد والمكاتب والأسلاك الكهربية . . وهى مظلمة وعلى الأرض تراب . ولكن الرئيس هاردنج كان من عادته أن يفترش الأرض !

وكانت هناك علامة متفق عليها مع الرئيس إذا أصرت زوجته على الدخول ، بعد أن تناثرت الشائعات . . فكان الحارس عندما يراها يطلق صوتا ينبه الحراس الآخرين بضرورة الوقوف احتراما للسيدة الأولى . والحقيقة أنه ينبه السيد الرئيس !

وكان الرئيس هاردنج طويلا وسيما عريض الكتفين قوى الساقين كثيف الشعر . . وكان محبوبا من النساء . وقد تزوج فتاة جميلة وهو فى السادسة والعشرين من عمره . . وكانت له علاقات كثيرة . حتى ظهرت العشيقة نان بريتون . فاستولت عليه تمامًا . ولم يكن الرئيس هاردنج فى صحة كاملة . . إنما كان يشكو من الانتفاخ ومن الإمساك ومن التقلصات ومن الأرق . . وكانت زوجته تدير البيت الأبيض فى غيابه مع العشيقة .

ولم يحدث فى تاريخ الرياسة الأمريكية أن أعلن أحد قبله أنه زاهد فى الحكم . . كما كان زاهدًا فى عضوية مجلس الشيوخ . وأنه يريد أن يعيش بعيدًا . . وكان يشرب دائمًا ، ولكن ليس كثيرًا . وكان يلعب القمار مع أصدقائه فى البيت الأبيض . .

وفى إحدى المرات سافر إلى كندا . . وكانت معه العشيقة . وتلقى مكالمة لا أحد يعرف ما هى فقرر العودة . ومات مسموما . ويقال إن زوجته هى التى وضعت له السم .

ولكن الرئيس هاردنج كانت له مشكلة طبية لم يجدوا لها علاجا . فهو فى حالة (هياج) جنسى مستمر . وإشباعه لهذا الهياج كان مؤلما . ولم يكن يجد لذة فى كل ذلك . . ومرضه معروف باسم (ساتيريزيس) وهو يقابل مرض المرأة المعروف باسم نيمفومانيا ـ أى السعار الجنسى . . وعدم الارتواء مع الألم الشديد والبكاء أحيانًا ! !

وكانت حاشية أى رئيس أمريكى تعلم أن للرئيس غرفة ما . . وليس

بالضرورة ملاصقة لمكتبه . . وكانوا يسهلون رغبات الرئيس ولا يعترفون بذلك إلا بعد موته . .

والشعب الأمريكى لا يهمه إلا الطريق إلى البيت الأبيض . . الطريق الذى يرصفه الشعب بالثقة ، ويكون مسئولا عن اختياره . . أما ما بعد ذلك فهم يتركون الرئيس لضميره . ويجدون له عذرًا إذا هرب من المشاكل الاقتصادية والصناعية والسياسية إلى حضن إحدى العشيقات . . وقد فعلوا ذلك دائمًا !

* * *

وبدأ الناس فى أمريكا يضيقون بفضيحة مطربة الكباريه التى ظهرت كاذبة أمام الملايين . .

وبعض الناس يقول : وإيه يعنى . . إننا نختار رئيسًا لأمريكا وليس رئيسًا للفاتيكان !

وفى نفس الوقت انتشرت أغنية مع صورتين واحدة لجارى هارت المرشح الأسبق وواحدة لبل كلنتون المرشح الحالى . الأغنية تقول : إلى كل البنات الحلوة التى أحببناها . . فالبيت الأبيض لا يهم يابنات . . لا يهم!

ويتساءل الناس فى أمريكا : ماذا يحدث للعالم لو أن الشعب الأمريكى طالب باستقالة روزفلت فمن الذى كان فى استطاعته أن يواجه هتلر وموسولينى وستالين فى أوروبا . . لو ذهب روزفلت لجاء رئيس أمريكى تقى ورع ينادى بعزلة أمريكا عن مشاكل أوربا . . ليسودها هتلر وستالين !

وعلماء النفس يقولون : إنها ظاهرة (لوليتا) . . الطفلة الأنثى التى تكتسح أكثر الزوجات احتراما ووقارًا . . إن طفلة فى الخامسة عشرة تستطيع أن تذيب الحديد . . ولو كان هذا الحديد جالسا على عرش الولايات المتحدة !

يعنى أن الشعب الأمريكى يجد للمرشح الـديموقراطى بعض العذر . فـالذى يهم أمـريكا ليـس مدى إخـلاصه لـزوجته التـى أعلنت أنها تحبـه وتتمسـك به وتصـدقه ، ولكـن الأهـم هو مشـاكـل أمريكـا الاقتصاديـة والصناعية ومـواجهة اليابان والتعـايش مع روسيا بعـد أن أصبحت حليفا وليس عـدوا . . إن الأمريكان اعتادوا على العـداوة . . وعلى أن يحسبوا لها ألف حسـاب فى البر والبحر والجو والفكـر . . والآن يجب أن يساعـدهم الرئيس القوى على التعايش والتكيف . .

أما إذا ثبـت أن المرشح الديموقـراطى كان كـاذبًا ، فبوش هو الـرئيس القادم لا محالـة . . وقد أدت فضيحـة المرشح الديمـوقراطـى إلى اختصار الحملة الريـاسية تمامًا . . والطريق مفتـوح أمام الرئيس بوش الـذى جربه الشعب الأمـريكى سنـوات رياسة ريجان ، وقبـل ذلك فى الأمـم المتحـدة وقبل ذلك فى المخـابرات . . ثم هو الذى انتصر فى الخليج والـذى ساعد على انهيار روسيا ونهاية الحرب البـاردة ودفن القنابل الذرية . . ثـم إنه من المؤكد لن ينظر لغير زوجته السيدة بربارا وأولاده وأحفاده !

١٠ دقائق وثانية واحدة بعد أن خلق الله هذا الكون الذى يتمدّد !

آخر كلام لعلماء الفلك : أن الله قد خلق الكون من ١٥ ألف مليون سنة . . وأن الخلق كان فجأة . وكان على شكل (انفجار عظيم) . هذا الانفجار العظيم بدا بشيء مادئ فى حجم حبة السمسم . هذه السمسمة مطلقة الكثافة . وانفجرت وتمددت شظاياها أو بذورها . . أو عواصفها المادية فى كل الاتجاهات . . وتسارعت مليون مليون مليون مرة فى أقل من ثانية . .

ولو فرضنا أن الكون الذى نعرفه وهو ١٪ من الكون المجهول المظلم البارد ، فى مساحة أستاد القاهرة ، لكانت الأرض فى مساحة علبة كبريت ولو فرضنا أن هذا الكون عمره سنة واحدة . لكان معنى ذلك أن (الانفجار العظيم) قد وقع فى أول ثانية من أول دقيقة يوم أول يناير . ولكانت الحضارة الإنسانية قد ظهرت فى آخر ثانية من آخر دقيقة يوم ٣١ ديسمبر !

فالإنسان حديث العهد بالظهور على سطح شيء ضئيل جدًا اسمه الكرة الأرضية ومنذ وقت قريب جدًا .

فكيف حدث كل ذلك ؟

نحن لا نعرف كيف خلق الله الكون . . ولا نعرف متى كان ذلك . ونحن نعتمد على الخيال والشك . . فلابد أن يتخيل الإنسان كيف يمكن أن يحدث ، ولابد أن يتشكك فيما نصل إليه من معلومات من حين إلى حين حتى لا يختلط الخيال بالواقع . . أو الوهم بالحقيقة . .

ولكن الشىء الذى يدعو إلى الدهشة حقا هو أن الإنسان فى جميع مراحله كان لديه شعور عميق بأن الخلق له بداية . . كل شىء له بداية . وله نهاية . وأن هذه البداية كانت من العدم . . أى إنه لم يكن هناك شىء، قبل أن يظهر الكون . . كان هناك الفراغ . . أو العدم . . أو العماء أو الضباب . . وفجأة اتخذت المادة أشكالا . . وتحولت المادة إلى المجرات ومعنى ذلك أن كل شىء له بداية وأن بداية كل الأشياء واحدة .

وكل الأساطير القديمة لها هذا المعنى . . بل إن الحضارات البدائية ترى أن الكون بدأ على شكل بيضة . . والبيضة فقست وأفرخت هذه الكائنات . . أو أن الشر كان فى البداية وانتصر عليه الخير . . والشر هو الفوضى والعدم . . والفراغ واللاشىء . . والخير هو النظام والحكمة . وإن ظهور الكون هو انتصار للعقل والحكمة على الفوضى . .

وإن الصراع بين الخير والشر إلى الأبد . . وليست الأمراض والأحقاد والحروب إلا محاولة للشر أن يمحو كل ما هو خير فى هذه الدنيا . . أو هذا الكون .

وهذا واضح فى الحضارة السامية وحضارتى بابل وآشور والحضارة المصرية أيضًا . . فعند الفراعنة أن الإله الشرير « أبيب » كان فى حالة تربص دائم ليحطم الخير والنظام والعدل .

وعند الإغريق كانت للآلهة كل صفات وعيوب البشر . . لها نواقص البشر ولكن لها قدرة الآلهة . . ولذلك أصبح الشر قويًا . .

ومن العجيب أيضًا أن كل الأساطير قد جعلت ظهور الإنسان متأخرًا . . أما الكون فظهر أولا . . أى إن المسرح قد أقيم من الأرض فوق الماء ثم أضاءت السماء بالنجوم والأقمار قبل ظهور بطل الكون : الإنسان على مسرح الحضارة . .

وكل الأساطير تقول لنا : إن الإنسان بعد أن خلقته الآلهة ندمت على ذلك . . لأنه متمرد بتكوينه . . فعلى الرغم من أنه من صنع الآلهة ، فإنه يقف معها على رأس المساواة . . ثم يقول : لا . . وتثور عليه الآلهة وتحاول القضاء عليه . . ولكنها لا تستطيع . . فعلى الرغم من أن الإنسان كائن ولد ليموت ، فإنه يموت ولكنه لا يفنى . . فحكمته تتناقلها الأجيال . فالحكمة أطول عمرًا من الإنسان . . وهذا هو التحدى الوحيد لكل الآلهة .

وفى كل الحضارات القديمة نجد ظاهرة الطوفان الذى أغرق الأرض وقضى على الإنسان . . ولكن الإنسان يعود إلى الظهور واستئناف الحياة من جديد . . فهو أقوى من الطوفان وأبقى من الموت وهو يمتد إلى الأمام . . إلى المستقبل . . فالإنسان هو الحيوان القادر على أن يكون له مستقبل . .

وكل محاولات آلهة الإغريق للقضاء على الإنسان قد فشلت . . مثلا لقد صنع آلهة الإغريق (بنات الميدوزا) . . إذا نظر إليها الإنسان تحول إلى حجر . . مات فى جلده . .

وأصبح كفنا ونعشا لعبقريته . . فالإنسان محكوم عليه بأن يكون حجرا . . أى يعود إلى بدايته . . وكانت بدايته حجرًا دبت فيه الحياة فصار بشرًا ولكن الإنسان اخترع حيلة صغيرة قضت على الميدوزا . . لقد اخترع لها المرآة . . فلما نظرت إلى نفسها فى المرآه صارت حجرًا . .

وغير ذلك من ألوف الحيل الإلهية للقضاء على الإنسان : الذى نصفه إله ونصفه حيوان . .

ومن مئات السنين والإنسان ينظر إلى السماء فوقه ويرصد ويحلل ويفسر ويتخيل . وكلما اخترع الإنسان عدسة للرؤية ظهرت له السماء أبعادًا وأحجامًا ومسافات . . وعلى الرغم من أن الكرة الأرضية ليست إلا بالونا يدور فى الفضاء ، ونحن عندما نطل من هذا البالون نرى الكون حولنا فإن الإنسان استطاع من موقعه هذا أن يعرف القليل عن الكثير جدًا الذى لا يعرفه .

ولم تتوقف غريزة الإنسان فى أن يعرف واهتدى الإنسان إلى نظريات كثيرة فى تفسير ماذا حدث بالضبط ؟ كيف ظهر الكون . . أى كيف خلق (الله) الكون ـ وكلمة (الله) هذه من عندى أنا . . فقد جاء اعتراف علماء الفلك والفيزياء منذ شهر واحد بأن لابد أن يكون لهذا الكون خالق ؟ !

وأحدث نظرية لنشأة الكون هى التى تقول بأنه فجأة . . مرة واحدة . ظهر الكون . وكان ظهوره انفجارًا جبارًا هائلاً . . الانفجار قد وقع بعيدًا عنا . . المسافة بيننا وبين مكان الانفجار حوالى ستين ألف مليون سنة ضوئية .

السنة الضوئية هى وحدة القياس فى هذا الكون الهائل .

(والسنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة . . والضوء يقطع ١٨٦ ألف ميل فى الثانية الواحدة . . والسنة الضوئية سنة لقياس المسافات وليست سنة زمنية . . أى سنة شمسية) وإنه من هذا الانفجار العظيم قد انطلقت المادة والغازات الساخنة (مليون مليون مليون درجة مئوية) فى أقل من ثانية فى كل الاتجاهات . . وبسرعة واحدة . . وخطوط مستقيمة ولها درجة حرارة واحدة ثابتة . . وفى غاية الانسجام والاتساق . وظلت هذه الشظايا ـ إذا جاز هذا التعبير ـ تتسارع وتتباعد ملايين ملايين ملايين الأميال وتبرد وتتجاذب بعضها إلى بعض حتى كانت النجوم والمجرات التى تتكون من ألوف ملايين النجوم . . وألوف ملايين المجرات

التى تتباعد ألوف ملايين السنين الضوئية . . وعواصف من الغازات والتراب والنار والجليد والمواد العضوية . .

وكلها تدور بعضها حول بعض . . فى مسارات دائرية أو مفلطحة أو حلزونية . . وكلها تخضع لقانون واحد . . الكون كله يخضع لقوانين واحدة ثابتة تمامًا . . والكون كله يمتد ويتراجع ويتسارع ويتماسك ويتباعد ويدور . . والأجرام السماوية كالإنسان يولد ويشيخ ويموت .

وفى الكون (حضانات) تتولد وتتخلق فيها النجوم والمجرات . ألوف ألوف الملايين . .

والكون لا يستطيع العقل أو الخيال أن يتصور مدى اتساعه ويكفى أن نقول إن نجما واحدا لو انطلق ألوف ملايين السنين الضوئية فى أى اتجاه فإنه لن يصطدم بنجم آخر !!

وظلت هذه النظرية سيدة لكل النظريات التى اهتدى إليها علماء الفيزياء الفلكية أكثر من خمسين عامًا وظهرت نظريات أخرى تحاول إبطال هذه النظرية . .

أخيرًا جاءت الصور من الفضاء الخارجى تؤكد أن هذه النظرية صحيحة .

وفى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٨٩ أطلق الأمريكان سفينة اسمها (كوب) وهى اختصار لثلاث كلمات معناه مرتاد خلفية الكون cosmic background Explorer فى مدار ارتفاع ٦٠٠ كيلو متر حول الأرض . والسفينة مزودة بأدق الأجهزة التى اخترعها الإنسان . فاحتمال الخطأ فى رصد درجات الحرارة والكثافة المادية والضوئية تصل إلى ثلاثة من ألف مليون للمليمتر . . وأرسلت السفينة أكثر من ٤٥٠ مليون معلومة . .

ولم يجد العلماء فى كل هذه المعلومات الدقيقة التى تلتقطها محطات

للمتابعة الأرضية فى القطبين الجنوبى والشمالى وهى تدور فى فلك حول خط الاستواء ، شيئًا جديدًا .

ولكن فى العام الماضى أحس العلماء فى أمريكا بأن شيئًا خطيرًا قد سجلته السفينة . فعكف العلماء سنة كاملة على تحليل المعلومات الهائلة الجديدة .

وأول إنجاز لهذه السفينة : أنها سجلت صورة للتحولات الكونية البعيدة عن أجهزة السفينة بحوالى ستة أميال وأمامها ٢١ صفرًا . . ولكن هذه الصورة ليست هى الشىء الهام . .

ولكن الشىء الهام جدا ، والذى هو أعظم اكتشاف عرفه الإنسان فى هذا القرن وربما فى كل القرون : أن هناك اختلافات فى درجات الحرارة .

هذا هو الاكتشاف الخطير الأول . .

والاكتشاف الخطير الثانى : أن هناك موجات . . تموجات فى حركة الاندفاع والتسارع المادى إلى ما وراء الوراء فى هذا الكون . .

ولم يكد العلماء يكتشفون ذلك حتى فرقعت زجاجات الشمبانيا . وصرخوا بأن نظرية (الانفجار العظيم) صحيحة !

وواحد قال : يبدو أن الكون له بداية . وأن هناك خالقًا !

أما تفسير هاتين الملحوظتين الخطيرتين فهو أن ظهور بقع حرارية متفاوتة الحرارة والبرودة دليل على أن وقتا قد مضى منذ الانفجار العظيم . . وأن الوقت الطويل قد أدى إلى انخفاض فى درجات الحرارة . وهذا الانخفاض يصل إلى واحد على ألف مليون من الدرجة المئوية الواحدة . وهذا ما لا تستطيع أية أجهزة اخترعها الإنسان على تسجيله ولكن (كوب) التى تكلفت مائة وستين مليون دولار استطاعت ذلك .

أما الملحوظة الثانية وهى أن هناك رعشة أو رفرفة فى تموجات الانفجار العظيم فهى أكبر دليل على صحة النظرية . . فقد كانت هناك بداية .

والبـدايـة قـد مـر عليها وقـت مـا . والـوقـت أدى إلى انخفـاض الحرارة وانخفاض السرعة وإلى استجابة الاندفاع إلى الجاذبية . .

إذن هذه هى البداية . . أو إن الصورة التى التقطتها السفينة (كوب) كانت قريبة من البداية .

وقد قـرر العلماء أن هذه الصـورة التى وصلـت إلى السفينة قـد جاءت بالضبط بعد خلق الكون بثلاثة مـائة ألف سنة ، عشر ـ دقائق وثانية ـ إذا كان عمر الكون سنة واحدة . .

فهى ـ إذن ـ صورة تذكارية للهيئة الكونية بعد الخلق . .

ويقول العلماء كـأننا حضرنـا لحظة الخلـق . . وأننا نسمـع صوت الله سبحانه ـ وهو يقول للكون : كن . .

أو نحـن لم نسمع صـوت الله ، ولكـن سمعنـا صداه . . نحـن لم نـر أصابع الله ـ سبحانه ـ وإنما رأينا ظلالها على الفضاء اللانهائى . .

إن هذا الـذى حدث ليس انفجـارًا (فى) الفضاء ، وإنما هـو انفجار الفضاء . . انفجار المكان والزمان معا . .

نعود إلى (علبة الكبريت) فى إستاد القاهرة .

إن كل الذى تعلمناه وعـرفناه وأحببناه وكرهناه موجـود على سطح هذه العلبة . . كـل العظماء والأشرار . . كل الأنبياء والـرسل كل الأبطـال كل العلماء . . كل الأدباء والشعراء . . وكل تحديـات الإنسان قد ظهرت على هذه العلبة . . كل شىء عظيم قد ظهر على سطح هذا الجسم التافه .

والإنسـان حديـث العهـد بـالظهور فى هـذا الكـون . . عمـره ثانيـة واحـدة . . إنها صحـوة . . إنها ليست إلا يقظـة قصيرة فى عمـر لا نهايـة له . . وعلى الـرغم من أن الإنسـان ضعيف وأنـه ولد ليموت . فـإن عنده حب استطلاع عظيما . . وعنده شجاعة وعنده خيال . . ولن يتوقف عن

المعرفة .. وعن التساؤل . . حتى يعرف هذه الأسرار المعقدة التى حولنا .

فالذى نعرفه عن الكون الهائل ليس إلا واحدًا فى المائة . . والباقى مادة مظلمة باردة لا نهاية لامتدادها . . ومن يدرى ربما رجع الكون من الامتداد إلى التقلص والانكماش والتساقط والتجاذب . . فيكون الانفجار العظيم الثانى . . انفجار التقلص . . بعد انفجار التمدد . . وبعد ألوف ملايين السنين يعود إلى التمدد . . نحن لا نعرف .

إن سفينة واحدة على مسافة ٦٠٠ ميل من الأرض قد نقلت إلينا ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . فماذا لو انطلقت السفن تحمل المراصد الفلكية إلى خارج المنظومة الشمسية . . التى هى الشمس وهى واحدة من ألف مليون مليون نجم فى أقرب مجرة لنا وهذه الشمس تدور حولها تسعة كواكب أقربها بلوتو وأكبرها المشترى وأكثرها لمعانا الزهرة . . ويدور حول هذه الكواكب ٤٣ قمرًا وعشرات الألوف من الجسيمات وألوف الملايين من الشهب . . وكلها تدور حول بعضها البعض حول الشمس . . والشمس نفسها تدور ولكى تكمل الشمس دورة واحدة حول مركز المجرة فهى فى حاجة إلى مائتى مليون سنة ضوئية - وفى الكون ألف مليون مليون مجرة أخرى .

* * *

لقد كانت صرخة غريبة عجيبة من العالم الفلكى الأمريكى اسموت صاحب هذا الاكتشاف العظيم وهو الملحد والذى آمن ثم كفر وأخيرًا آمن أن يقول : إذن لابد أن يكون لهذا الكون القديم إله .

وكان الناس الطيبون فى القرن السابع عشر يرون أن الله قد خلق هذا الكون قبل ميلاد السيد المسيح بحوالى ٤٠٠٤ سنوات ؟! - وفقا لحسابات الأسقف جيمس أشر ؟!

نحن - إذن - أحدث صورة من صور تطور المادة التى انفجرت من ١٥

ألـف مليون سنـة . . إن هذه المادة قـد تطـورت إلى وعى وإلى عقـل وإلى إبداع إنسانـى وإلى خيال وإلى عطش للمعرفـة وإلى إصرار على الاستمرار إلى أعلى وإلى الأمام . .

ولكى تمتـد عيوننا إلى جمال الكون وتنصـت أعمق إلى موسيقـى الخالق التى انتظمـت كل ذرات الكون فى انسجـام محكم . . ونحـن لا نعرف إن كانت هناك حضارات عاقلة أخرى . . كم عددها . .

كم عـدد الحضارات التى ذهبـت والتى جـاءت والتى تذهـب والتى تجىء . . وما الـذى سوف يحدث لعلبـة الكبريت التـى عشنا عليهـا ولا نزال . . هـل نتطوع بنسفها . . هل نمضـى فى إشاعة السموم فى كـل ماء وهواء وطعام ونقضى على الإنسانية فى آخر لحظة فى يوم ٣١ ديسمبر . . أو نعيش حتى نصل إلى أول يناير من العام القادم ؟!

ماذا سيحدث لأرضنا . . ما الذى سـوف نفعله بأرضنا . . بأنفسنا . ماذا سنفعل بما فعلته المادة فى كفاحها الذى استغرق ألف مليون سنة حتى إقامتنا على الأرض نرصد السماء ونضع آذاننا على صوت الخالق وهو يقول . كن . . ويمد قدرتنـا على الرؤية لكى نشهد ظلال الأصابـع المبدعة وهى تغـرس القانـون والحكمـة والهدف فى المادة الأولى لهذا الكون . . أى بعـد برمجة هذا الكون العظيم . .

إن سطـح أرضنا هـذه ليس إلا مـوقعا متـواضعًا على شـاطئ المحيـط الكونـى الذى لا نهاية لـه ونحن نتطلع إلى الكون مـن فوق برغـوث يدور حول علبة كبريت أو فنحن ذرة على بلاج الكـون ولكننا أفضل من الكون لأننا نعـرف أننا نعـرف ونعرف أننا نجهـل . . فنحن أعقـل من كـل هذا الكون الـذى هو أصلنا . . بدايتنـا ونهايتنا وأملنا وطموحنـا . . ونحن لا نعرف إن كنا وحدنا . . أو إن هناك بعدد الكواكب حضارات عاقلة . أى مليون مليون مليون مليون حضارة أخرى ؟!

يقول أناس :
لو وصفت لنا الهوى !

الذى هو شاب : يغنى . .
والذى هو رجل : ينطق بالحكمة . .
والذى هو شيخ : يحتقر الاثنين . .

* * *

الذى هو شاب : له مستقبل . .
الذى هو رجل : له حاضر . .
الذى هو شيخ : له ماض . .

* * *

الذى هو شاب : يطير . .
الذى هو رجل : يمشى . .
الذى هو شيخ : يزحف . .

والشباب هو شباب القلب . . ولأننا فى زمن مادى عملى ، فلم يعد أحد يعرف مكان القلب ولا مكانته . . فالعلم مشغول بالطعام كيف يدخل . . والصرف الصحى بعد ذلك !

ولكن القلـب ووجع القلب الـذى ليس علاجـه الأسبرين . . والحب الذى هو هرش فى القلب لا تبلغه الأصابع . . والحب الذى هو ميكروب ينقل الصحة إلى كل الخلايا . . ليس هذا مما يشغل الناس الآن . .

فالناس يعتـذرون عن الحب . ويعتذرون عن الخير والعـدل والوفاء . كأنها ظـواهر بليدة متلكئـة . . إنها تعطل مسيرة الحياة وقفـزات التقدم . وتجعـل الإنسـان منبطحـا على الأرض وليـس منـدفعـًا نحـو الكـواكـب الأخرى . .

انظر إلى كل الصحف : كراهية . . وعند . . وتربص . .

ولم يعد للقلب أخبـار . . وإنما كل الأخبار للمعدة . . ولم تعـد لزهرة نضرة عناويـن ، وإنما كل العنـاوين للرصـاص والبارود وهتـك الأعراض والطلاق والسموم . .

انظر إلى كـل الوجوه فى كـل الصحف ونشرات الأخبار : إنها تفـرغت للكراهيـة والقتل والانتقام . فلا وقـت عند أحد أن يحب وأن ينشغـل عن الدنيا كلها بخفقان قلبه وحرقـان خياله . . وأن ينشغل عن ملايين الناس بـواحدة . . أو بـواحد . . واحـد فقط يمـلأ دنياهـا ويفيض إلى آخـرتها أيضًا . واسمه الحب . .

لقـد أعجبنـى هـذا الحوار بين اثنين مـن الأصـدقـاء فى المشهـد الأول للفصل الأول مـن مسرحية الأديـب الإيطالى كـارلو سـالينى التـى عنوانها (حاضرون غائبون) :

- ما الذى أخجلك ؟

- إننى صغير .

- هل تستطيع أن تبلغ المائة سنة الآن ؟

- لا .

- إذن لماذا تخجل ؟ هل شىء آخر يخجلك ؟

ـ نعم . إن العمدة قد تزوج البنت التى أحببتها !

ـ بل هو الذى يجب أن يخجل وهل كانت تحبك ؟

ـ نعم .

ـ فماذا حدث ؟

ـ أمها اختارت لها العمدة . .

ـ هل يمكن عمل شيء ؟

ـ لا

ـ إذن لماذا تخجل ؟

ـ لأننى عاجز عن فعل شيء !

ـ إن الكسيح لا يخجل لأنه لا يستطيع أن يفوز فى سباق الجرى . والطائر بلا جناحين لا يخجل لأنه لا يستطيع أن يفوز فى سباق الجرى . والطائر بلا جناحين لا يخجل لأنه لا يبلغ السحاب . . إنه ينشد المستحيل !

ـ ويخجلنى أننى أسود الوجه . .

ـ هل تستطيع أن تكون أشقر الوجه أحمر الشعر أزرق العينين تتكلم الألمانية بطلاقة ؟

ـ لا . .

ـ فما دمت لا تستطيع فما الذى يخجلك . . ثم إنك لست عاجزًا . لأن العاجز هو الذى يستطيع أن يبلغ النهاية ثم لا يبذل جهدًا أكبر . ولكنك لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة حتى لو أردت . فأنت يجب ألا تخجل . . وإنما الخجل للقادرين ، وأما العاجزون فلا خجل لهم !

ـ وأبى مات مخمورًا !

ـ هل يخجلك ذلك ؟

ـ نعم .

ـ فهل كان بوسعك أن تمنعه من شرب الخمر التى أدمنها عشرين عامًا قبل مولدك ؟!

ـ لا . .

ـ أمك هى التى يجب أن تخجل فقد كان فى استطاعتها . . وكذلك أعمامك وأخوالك . . هل كان فى استطاعتك أن تضع ماء النار فى زجاجة والدك ؟! هل كان فى استطاعتك أن تكون أخا لوالدك لكى تمنعه ؟!

ـ لا طبعا . .

ـ إذن يجب ألا تخجل . . وهل أبوك يخجل منك ؟

ـ فعلا هو الذى يخجل منى . . فقد لاحظت ذلك فى عينيه . . لأنه يملك الإرادة ، ولكنه عاجز عن اتخاذ القرار . . إنه الصغير أمامى . . إنه العاجز عن رد حكمى عليه بأنه سكير عربيد . .

ـ هل شىء آخر يخجلك ؟

ـ إننى أحب واحدة أخرى . .

ـ بالضبط هذا ما لا تخجل منه ! فلا يخجل من أحب !

ـ بل أخجل منه . . فأنت لا تعرف من هى التى أحبها . . إننى احتقر زوجها ومكانته وثروته وقدرته . .

ـ أنت تخجل من حبك لها ولا تخجل من كراهيتك له وحقدك عليه ؟ أنت ياسيدى لا تعرف ما الذى يجعل الإنسان يخجل وما الذى يجعله يشعر بالعار !!

إن قصص الحب أصبحت غريبة فى حشود الكراهية . . إن دمعة على عين المحب والمحبوب تمسحها أمطار الحقد والغل والتربص . . والمعركة قديمة . . ولكنها تتجدد فى حياة كل يوم . . بل كل لحظة . ولا تلتفت إليها العيون والآذان لأنها ليست دموية ولا صارخة !

وكـان المفكر الإنجليـزى كارليـل يقـول : إن سقوط شجـرة فى الغابـة يحدث دويا هائلاً . . ولكن الفراشات التـى تنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة ، ليس لها صوت . . إنها تمد الحياة فى صمت وجمال وروعة !

وقد سجل لنا الكتـاب المقدس فى السفر الثامن من (العهـد القديم) أروع قصـص الحب والشـوق والحنين والكبريـاء والإبـاء . . جـاء ذلـك شاعريا فى سفر (نشيد الإنشاد) فى ١١٧ بيتا أو عبارة أو لحنا . . فالكلام شاعرى . . ولأنه عميق بديع فقـد وضعوه ضمن الكتاب المقدس . وبعد أن وضعوه راحوا يفسرونه صوفيا ورمزيًا وأدبيًا . .

وقالوا ليس هذا الشعر العـاطفى الجنسى إلا رمزًا لحب السماء وعشقها للأرض . .

وقالوا : بل هذا شعر تغنى به الملك سليمان . .

وقالوا : بل هى أغنيات الأفـراح والليالى الملاح فى سوريا . . وكان من عادتهم أن يتحدثوا إلى العريس الجالـس على عرش زوجته الجميلة على أنه ملك وهى ملكة . .

وقالـوا : إن الملك سليمان تزوج راعية غنـم اسمها شوليـت . . ولكن شوليـت كانت تحب راعيـا . وظلت تتغنـى به وتحن إليه . . حتـى أطلق الملك سليمان سراحها . .

فهو قد استولى على جسمها . . أما قلبها فكان لها وكان مشغولا براعى الغنم .

وهذه القصة الـرائعة هى انتصار للحب على القوة . . انتصـار للراعى على الملـك . . إنها أقـوى احتجـاج ثورى فـردى فى التـاريـخ . . أعظـم وأروع . وقد ذهب الملك والعرش ، وبقى الحب !

ففى سفر (نشيد الإنشاد) . .

الـراعى يقـول : جميلـة حبيبتى . . عينـاك حمامتـان . . هى : جميـل

أنت . . ياحبيبى أنت حلو . . وسريرنا أخضر . .

هو : كالسوسن بين الأشواك كذلك حبيبتى بين البنات . .

هى : كالتفاح بين الشجر حبيبى . . وكذلك هو بين الرجال . . تحت ظلك اشتهيت أن أجلس . . وثمرته حلوة لحلقى . . اسندونى بأقراص الزبيب . . انعشونى بالتفاح فإننى مريضة حبا . . شماله تحت رأسى ويمينه يعانقنى . . أحلفكن يابنات أو رشليم بالظباء وأيائل الحقول ألا توقظن حبيبى . . ألا تنبهن حبيبى حتى يشاء . .

هو : قومى ياحبيبتى وياجميلتى تعالى . . المطر مر وزال . الزهور ظهرت . قومى ياحبيبتى . أرينى وجهك وأسمعينى صوتك . . لأن صوتك لطيف ووجهك جميل . .

هى : حبيبى لى وأنا لحبيبى . . الراعى بين السوسن إلى أن يتضح النهار وينهزم الظلام . . بحثت عن الذى تحبه نفسى فما وجدته . استحلفكن يابنات أو رشليم ألا تنبهن حبيبى حتى يشاء . .

هو : عيناك حمامتان من تحت نقابك . . شعرك مثل قطيع رابض على الجبل . . شفتاك قرمز . وفمك حلو . . خدك نصف رمانة . . عنقك برج داود .

هى : ياجميل ياحبيبى ليس فيك عيب . شفتاك تقطران شهدًا . تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان . أنا نائمة وقلبى مستيقظ . . نفسى خرجت عندما ذهب . . حبيبى أبيض وأحمر . . رأسه ذهب . . شعره أسود كالغراب . خداه جميلتا الطيب . . شفتاه سوسن . . بطنه عاج أبيض تغلف بالياقوت الأزرق . . ساقاه عمودا رخام على قاعدتين من إبريز . . حلقه مثل لبنان . . فتى كأشجار الأرز . كله مشتهيات . . أنا لحبيبى وحبيبى لى . .

هو : قامتك نخيل . ثدياك عنقودا الكرم . .

هى : اجعلنى كخاتم على قلبك . . كخاتم على ساعديك . . المحبة قوية كالموت . . الغيرة قاسية كالهاوية . .

وكل عبارات (نشيد الإنشاد) مثل حبات اللؤلؤ . . كل واحدة إلى جوار الأخرى . . فليس فى هذا النشيد من أوله لآخره حرف (واو) العطف فى النص القديم . .

وهذا النشيد هو أروع وأعمق ما عرف التاريخ القديم .

والمعنى : إن العرش والقوة والمال تشترى جسما جميلاً . . ولكنها لا تشترى قلبا . . ولذلك فالملك سليمان أعاد الفتاة شوليت إلى حبيبها الراعى . . وانتصر الحب . وانكسرت القوة والتاج والعرش . .

وبعد ذلك بألف سنة تكررت نفس المأساة التى هى أعظم تحية للحب وأكبر هزيمة للقوة . . فالخليفة معاوية بن أبى سفيان تزوج فتاة بدوية . ولكن الفتاة واسمها (ميسون بنت حميد بن بجدل الكلبية) لم تحب الخليفة لحظة واحدة . . وإن كانت قد حملت وولدت . وإنما بقيت على حبها لابن عمها . وعلى الرغم من أن الخليفة قد أسكنها قصرًا ، وابن عمها لا يملك إلا خيمة . . فإنها ظلت تبكى ابن عمها والخيمة . تفضل لقمة العيش مع ابن عمها على الرغيف مع الخليفة ، وتفضل نباح الكلاب على دقات الدفوف . . وتفضل الملابس الخشنة على حرير الخليفة . . وقد سمعهامعاوية تقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب إلى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عينى
أحب إلى من لبس الشفوف
وأكل كسيرة فى كسر بيتى
أحب إلى من أكل الرغيف

وكلب ينبح الأضياف دونى
أحب إلى من هز الدفوف !

فقال لها معاوية : ما رضيت يا ابنة جندل بما أعطيناك فعودى إلى أهلك !

فعادت إلى قبيلتها سعيدة بحريتها وحبها لابن عمها !

* * *

والذين كتبوا ألف ليلة بعد ذلك بستة قرون لم يفهموا أن الخيانة من الممكن أن تكون بالقلب .

(فألف ليلة وليلة) تبدأ بأن الملك شهريار قرر أن يزور أخاه الملك شاه زمان . . وقبل سفره اكتشف أن زوجته خانته مع أحد العبيد . .

وحزن الأخوان . .

ولم تقل لنا (ألف ليلة وليلة) إن كانت الملكة خائنة ، لأنها لم تحب الملك . . أو إن كان الملك قد أكرهها على الزواج منه . . وهل لو اكتشف الملك أنها (تحب) رجلاً آخر ، دون أن تعاشره ، كان يغفر لها ثم يعيدها إلى المحبوب ، كما فعل الملك سليمان ومعاوية بن أبى سفيان . .

ولكن مؤلفى (ألف ليلة) جعلوا الخيانة جسمية . . وكان لابد أن تلقى الخائنة عقابا جسديًا أيضًا . . فقتل كل ملك زوجته والعبد الأسود الذى استولى عليها . .

وفى يوم أحس الأخوان بهزة أرضية وارتفاع عمود من الدخان . فهربا معا فوق إحدى الأشجار . . وفجأة ظهر عفريت . . والعفريت معه صندوق صغير . ولما فتحه خرجت فتاة جميلة . قال لها العفريت . ياسيدة الحرائر . . دعينى أسند رأسى إلى ساقك وأنام بعض الوقت !

ونام على ساقيها ولما رأت الرجلين فى أعلى الشجرة طلبت إليهما أن ينزلا وأن يقتربا . . ثم أخرجت من ملابسها ٧٥٠ خاتما . . وقالت لهما : كل رجل استسلمت له أخذت منه خاتمًا ؟

وقال الأخوان الملكان : إذا كانت المرأة تستطيع أن تخدع العفريت . فكيف لا تخدع الإنسان ، وهو أضعف من العفريت ؟!

وعاد الملك شهريار يتزوج كل ليلة واحدة ويقتلها . . فقتل ألف امرأة . . حتى لم تبق عذراء واحدة فى مملكته . . فتقدمت واحدة اسمها شهرزاد تحكى له كل يوم حكاية . . فحكت له ١٢٠ قصة فى ألف ليلة وليلة ... وهكذا جاء الأدب فأنقذ ألف امرأة من الموت . . ولم نعرف فى كل التاريخ أن حكايات لامرأة قد أنقذت هذا العدد من النساء . . ثم إنها عالجت الملك من مرض الانتقام والتعطش إلى الدم فاكتفى بها وأنجب منها أطفالا . .

وبعد ذلك بثلاثة قرون انتشرت الرومانسية فى أوروبا ، كما انتشرت قبل ذلك فى بلاد العرب (الحب العذرى) والحب العفيف . . والموت فى سبيل المحبوب . وكان الحب نوعا من الجهاد ، جهاد النفس والجسد والقبيلة . وكان الموت فى سبيل الحب العفيف اسمى درجات الاستشهاد .

وكان الشعراء عندنا وفى الغرب يتعذبون من أجل نظرة واحدة من عينى المحبوبة . . كان المحب هو الحياة . وكانت المحبوبة هى القضاء والقدر . وكان كل شىء يهون من أجلها . . وكان العذاب فى سبيلها شرفا ومجدا . . وكل الطرق تؤدى إلى قلبها . . قريبًا منه أو بعيدًا عنه . .

ثم ازدحمت الدنيا وامتلأت بكل شىء مادى . . بيع وشراء . . تجارة ودعارة وسياسة . . حتى توارى الحب . . وانكمش القلب وتضخمت المعدة . . وأصبح الحب غريبا . . والمحبون شواذ . . وأصبح الناس

يخجلون من أنهم يحبون . . يخجلون من أنهم يسهرون ويأرقون ويقلقون من أجل المحبوبة . . وصارت الأغنيات رقصا ، وصار الرقص شعرًا . وصار الحب مرضًا يتمنون منه الشفاء !

ولو تساءلنا عن عشرين كتابا صدرت فى القرن العشرين ، وكيف أنها واجهت السلوك الإنسانى بعيدًا وقريبًا عن المحبوب ولماذا ؟ فلن نذكر من هذه الكتب ما ألفه فى الأربعينات العالم النفسى الأمريكى الفردكينى عن السلوك الإنسانى رجلا وامرأة فى الحب والكراهية . . السلوك السوى والسلوك الشاذ . . ولن نذكر أيضا ما ألفته الباحثة شيرهايت عن سلوك المرأة وسلوك الرجل . . فلم يعد أحد ينشغل كثيرًا بأن أحدا أحب ، وإنما بأن أحدًا يزداد كراهية وحقدًا . . ولم يعد أحد ينظم الحب شعرًا . . بل إن عشرات الشعراء ينظمون الكراهية شعرًا ومنشورات وبرامج أحزاب سياسية واقتصادية . .

لقد كان القمر ملكا على عرش السماء . . صار القمر محطة للتزود بالوقود بين الأرض والكواكب الأخرى ! .

إن كنت قد نسيت دعنى أذكرك بالمسلسلات التليفزيونية الأمريكية . دالاس وداينستى وكولبيز . . إنها أحد أنواع السلوك الإنسانى ولكن فى أروع صورة . . إنها الحقارة والنذالة والحيوانية بأجمل الألوان . . وأجمل الممثلات والممثلين وبمئات ملايين الجنيهات . . إنهم يصبون الوحل فى أكواب الكريستال الأنيقة ذات الوميض يأخذ بالعقول . . إنها دعوة مفتوحة لكل إنسان أن يكون منحطًا حقيرًا دنيئًا . . فالذى هو حب فى هذه المسلسلات هو الحب ، وقد اتخذ شكلا كاريكاتوريا للسخرية بإنسانية الإنسان . .

لقد أعدوا كل شىء جميلا بديعا ساحرًا لكى يستسلم الحب . . ولكى يزفوه كل يوم ملكا مخلوعا . . وكائنا منقرضًا . . وخجلاً يتجدد وعارا لا

ينتهى . . انتقاما من كل من تسول له نفسه أن يكون إنسانًا !

ومهما تعددت المصايد الجميلة ومهما تطورت وتحورت أساليب الدمار الإنسانى . . فسوف يبقى هذا الشعور الشخصى النبيل . . وسوف يكافأ المحبون على عواطفهم بأنهم ملوك . . وأن عروشهم لا تزول . . فمن الممكن أن يكون العاشق جالسا على الأرض وظهره للحائط ولا يملك قوت يومه . . ولا يقوى على أن يدعو المحبوبة إلى ساندوتش فول . . ولكنه بالحب ملك الملوك . . وبالقلب أعظم الكائنات . . وفى قلبه وفى عقله هذه القدرة الجبارة على أن يجعل الدنيا كلها كرة صغيرة عند قدميه يدوسهامن أجل المحبوبة . . أو يسحقها ترابًا عند قدميها . . ولكن أحدًا لا يصدقه . فليكن . . ولكن أحدًا لا يراه ملكا ولا يرى له عرشا . فليكن إنه فى نفسه وفى وجدانه : أعظم الناس . . وإنه مريض حبا . وإن حبيبته كلها مشتهيات ـ كما يقول الكتاب المقدس . .

ويظل الحب هو الساحر الذهبى الوردى الذى يملأ الدنيا . ويفرغها . . والذى يجعل للمحبوبة فى كل خطوة سلامة وسلاما وبركة . ولا يهمه كثيرًا ماذا يقول الناس . ولا ماذا يقول علماء النفس فى معنى الحب . . إنه ليس مشغولا بالمعنى وإنما هو مشغول بشعوره . .

علماء النفس يقولون : الحب هو احترام واعتياد واستمرار ورغبة فى التملك . . لا يهم فالحب مثل ذلك أو أكثر من ذلك . الحب هو الحب .

وقديما قال الشاعر العاشق :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف

ولما حاول شوقى أمير الشعراء أن يوضح المعنى قال عاجزًا عن التوضيح . .

(يقول أناس لـو وصفت لنا الهوى)
لعـل الـذى لم يعـرف الحب يعـرف
فقلـت لقـد ذقـت الهوى ثـم ذقتـه
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف!

فشوقى ليس الشاعر العاجز عـن التعريف . . وليس الباحث العاجز عن التوصيف . . وإنما هو العاشق الـذى أحب . ولم يعرف ما هذا الذى يعانيه أول مرة . . أو المرة الألف : فالحب هو الذى لا يوصف وهو الأبعد عن كل وصف . . وهو الغريـب المغترب فى هذا الزمان . . ولكنه الأعظم احترامًا ، والأكثـر إنسانيـة . . فالحبيـب هو الـوثنى النبيـل أحق النـاس باحترام الناس ، لأنه الدليل الوحيد على أن القلب أقوى والحب أبقى ! .

٥٠ عاما على العار والدمار في بيرل هاربور

من بلكونـة فى فندق على شاطئ مـدينة بيرل هاربور جلـس يتفرج على الأجسام الجميلة النائمة الناعمة على الرمال الحمراء تحت أشجار جوز الهند الخضراء . . فمـن هؤلاء السعـداء الـذين طـالـت أجسـامهم وتغير لـون بشرتهم . . حتـى عيون النسـاء قـد استدارت . . إنهم اليـابـانيـون الذيـن يملكون هـذه الفنادق . . إن هـذا الجمال قد شجـع صاحبنـا الجالس فى البلكونـة على أن يملأ بطنـه بالأنانـاس واللوز والجوز والشـاى المعطر وأن يتخفف من ملابسه . . كأنه يابـانى ولا يهمه كثيرًا هذه العلامات السوداء على الأرض تشير إلى أن عدوانـا جويا قام بـه اليابانيـون فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ فأغـرق البوارج الحربية وقتل ثـلاثة آلاف أمريكى . . ففـى هجوم مفاجـئ استغرق بضع دقائق ، تحولـت السفن الحربية إلى مقابـر راسية فى المحيط الهادئ . .

ولم يكن هذا الجالس فى البكونـة مستمتعا بها رأى سنة ١٩٥٩ إلا أنا . كأننى مليونير . . نصف عريان كما ولدتنى أمى مع بعض التعديلات التى يقتضيها ادعاء الثراء واللامبالاة . أما دهشتى فكانت عظيمة جدًا . كيف

هذا ؟ الأمريكان يذكرون هذا اليوم الأسود فى تاريخهم . واليابانيون لا يبالون . . الأمريكان احتفظوا بضباطهم الذين شاركوا فى هذه المعركة يحكون للسياح ماذا حدث فى ذلك اليوم . وكيف حدث . . يذكرونهم حتى لا ينسوا . . واليابانيون قد نسوا تمامًا ! !

ولكن فى ذلك اليوم من خمسين عاما كسبت اليابان معركة ، ولكنها خسرت الحرب نهائيًا . فبعد أربع سنوات ألقت عليها أمريكا القنابل الذرية فى هيروشيما ونجازاكى . . وفى ذلك اليوم كسبت أمريكا الحرب ولكن قررت اليابان أن تكسب الاقتصادين الأمريكى والعالمى أيضًا .

والهزيمة الأمريكية واضحة فى المتاحف ، ولكن النصر اليابانى يتمدد جميلاً ساحرًا على الشواطئ !

فكيف وقعت معركة العار والدمار فى التاريخ الأمريكى ؟ لقد كان الهجوم مفاجئًا تمامًا . ولكن اليابان إستعدت له وخططته فى سرية تامة . فقد حركت أساطيلها الأقوى . وحاملات طائراتها الأكثر عددًا فى سرية كاملةومن أماكن مختلفة دون أن يدرك ذلك أحد من الأمريكان . وقبل يوم الغزو أرسلت اليابان جاسوسًا لها يرى ويصور ويسجل ويبعث بمواقع السفن الأمريكيةويصف الحياة اليومية للجنود والضباط والقادة . وذهب الجاسوس . وتفرج على السفن العائمة كالأوز . . لا حراسة ولا رقابة . ولا سأله أحد . ولا تشكك فى اقترابه الشديد . . لقد ذهب إلى مدينة بيرل هاربور بجواز سفر دبلوماسى . ثم ركب طائرة صغيرة وطار فوق الأسطول تمامًا كما فعلت أنا والمرحوم أحمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم . وربما كانت نفس الطائرة . . وراحت الطائرة تعلو بنا وتهبط فوق الميناء ثم اتجهت مباشرة إلى أحد البراكين التى انفجرت . . وطرنا فوق البركان . وعدنا . وكانت بيرل هاربور يوم العدوان ، بركانا من النار والفضيحة . ولم يحدث أن أهين الشعب الأمريكى كما أهين فى ذلك اليوم . . بل إن الإهانات التى توالت بعد ذلك كانت أهون كثيرًا . . فهزيمة أمريكا فى

كوريا كـان سببها نقص المعلومـات . . وهزيمتها فى فيتنام كـانت بسبب الغرور والعنطـزة . ولكن فى بيرل هـاربور كـانت لهذيـن السببين معا : لا عندها معلومات ولا عندها أى شك فى قدرتها وضعف اليابان . .

ولكن استطاعت إحدى المجندات فى المخابرات الحربية أن تفك شفرة الرسائل اليـابانية . . ونقلت إلى رئيسهـا سيلا من المعلومـات عن تحركات اليابانيين . . ولكن كان مصير هذه المعلومـات : سلة الزبالة . . فقد قال رئيسها : لا معنى لكل ذلك !

ثم مضى فى حلاقة ذقنه . .

وبعث السفير الأمريكى فى طوكيو بأن هجومًا يابانيا وشيك . . ولكن هذه الرسالة اعتبرتها الخارجية الأمريكية هذيانا لسفير لايفيق من الخمر !

وفى يوم ٦ ديسمبر من خمسين عاما تحركت الأساطيل اليابانية فى ظروف جـويـة صعبـة . . وقـد أطفـأت الأنـــوار تمامـا . وأغلقـت كـل أجهـزة الـلاسلكـى . وفى الضبـاب والسحـاب مضـت الأسـاطيـل وحـامـلات الطائرات . . وعنـد الفجر أيقظـوا الطياريـن . وعرفـوا المهمة . وأصيبـوا بالذهول . فلـم يتصور يابانى واحد أنـه يمكن ضرب الأمريكان . ولا أن تكون الضربة مفـاجئة . ولكن قائد الأسطول اليـابانى (يامامـوتو) الذى تخرج فى الجامعات الأمريكية وعرفه زملاؤه بأنه مقامر وأنه أحب القمار لأنه يكسب منه كثيرا ، قال لهم : إن النصر مؤكد !

وأسرع الضباط والجنود فقصوا أظافرهـم وخصلات من شعورهم لكى يبعثوا بها إلى أقـاربهم فقد لا يعـودون من هـذه المعركـة . . كما إنهم خلعوا أغطية الرأس ووضعوها فى ظروف إلى زوجاتهم وأولادهم . .

وفى نفس الوقت ضبطت المخابرات الأمريكية رسالة إلى السفير اليابانى فى واشنطن تطلـب إليه إحراق كـل ما لديـه من مستندات . ولما عـرضت الرسالة على الرئيس روزفلت قال : إذن هى الحرب !

وكانت الطائرات اليابانية فوق الميناء . . وكل شيء تحتها هادئ . قد أعد تماما ليكون ضحية الطائرات اليابانية . . وهبطت الطائرات وألقت القنابل وألف طوربيد . . واحترق الأسطول الأمريكي دون مقاومة . وبعد ذلك بساعة عادت الطائرات اليابانية لتقضى على ما تبقى من الأسطول . .

أما الأمريكان فقد ظنوا أول الأمر أنها تدريبات عسكرية . . فقد كانت السفن خالية تمامًا من الجنود والضباط . . أما القادة فيلعبون الجولف .

وفى محطة الرادار البريطانية بالجزيرة رأى الضابط النوبتجى حشدًا من الطائرات على شبكة الرادار لم يره من قبل . . فقيل له إنها الطائرات الأمريكية قادمة من كاليفورنيا . . وقال القادة الأمريكان : ولكن الوزارة لم تقل لنا باشتراك الطائرات السوفيتية فى المناورات !

والتقطت المخابرات الأمريكية رسالة شكر إلى الجاسوس الموجود فى الميناء تقول : برافوا ! لقد كان عملك رائعًا !

وبعد أيام ألقى القبض عليه . .

وعندما نقلت الأنباء إلى أمريكا كان الشعب الأمريكى غارقًا فى المسلسلات الإذاعية . . وأصابه نفس الذهول الذى أصابه يوم اغتيال الرئيس لنكولن سنة ١٨٩١ . وأحس الشعب الأمريكى بأن العدوان غدر يابانى !

ولا أعرف لماذا هو غدر ، فما الذى كان يتوقعه الأمريكان فى الحرب ؟! إن هتلر فعل ما هو أسوأ من ذلك ولم يره الأمريكان غدرًا ـ ربما اغتفروا لهتلر ذلك لأنه أوروبى أبيض ، أما الصفر الآسيويون فلا حق لهم فى الانتقام أو الغدر . .

ونحن هنا فى مصر وجدنا فى العدوان المفاجئ علينا سنة ١٩٦٧ وهزيمتنا بيرل هاربور أخرى . . بل أحسسنا بشىء من الارتياح . فإن كنا

قد انهزمنا فجأة ، فـأمريكا أيضًا - إذن لقد حدث ذلـك من قبل فى أعظم وأغنى العائلات فى العالم (؟ !) .

أما الرئيس روزفلـت فقد وصف الغزو اليابانى بأنـه بارع ومخطط علميا وبمنتهى الدقة !

ويقول اليـابانيـون إنهم استخدمـوا طريقـة (الماموتـو) - أى الطـريقة الشيطـانيـة . أى التخطيـط والـدراسـة والصبر والاحتراس ثـم الهجـوم الصاعق . وهـى نفس الطريقة التى استخـدمها اليابانيون قبـل ذلك سنة ١٩٠٤ عندما هاجموا الأسطول الروسى وحولوه إلى كتل فحم عائمة . . ثم غارقة بعـد ذلك . . ومن الصدف أن يكـون أحد الجنود الذيـن اشتركوا فى إغـراق الأسطول الـروسى هـو نفسـه قائد الأسطـول اليـابانـى الذى أبـاد الأسطول الأمريكى - إنه الأميرال ياماموتو .

وفى حديث له قال : إنها مرة واحدة فى التاريخ يمكن هزيمة أمريكا . وبعد ذلك ليكن ما يكون !

لقد كانت سنة ١٩٤١ فى أوروبا وإفريقيـا مروعة المقدمات والنتائج . فهتلـر أصبح قـائدًا عامـا لقواتـه . . وروميل كـان بارعًـا فى تحركاتـه وفى انسحابـه من إفريقيا وزاد العـداء لليهود فى أوروبا ففرض عليهـم هتلر أن يضعوا نجمة داود صفراء على صدورهـم وفى قلبها كلمة : يهودى . .

وأعلن هتلر وموسولينى الحرب على أمريكا . .

وأعلنت أمريكا وبريطانيا الحرب على اليابان . .

ووقع فى الأسر مائة ألف إيطالى . .

وكان أول هجوم روسى على برلين . .

ودخلت القوات البريطانية طهران . .

وأعلن ديجول قيام حكومة فى المنفى . .

وخسرت أمـريكا فى مـأسـاة (بيرل هـاربور) ٢٣٣٠ قتيـلاً و ١٣٤٧ جريحًا . . وثمانى بوارج وعشر سفن و ١٨٨ طائرة .

وخسرت اليابان ٦٤ قتيلاً و ٢٩ طائرة وخمس غواصات . .

وطبيعى ألا يشعر أحد بوفاة الأديب الايرلندى جيمس جويس والهندى طاغـور وغرق الأديبةالإنجليـزية فرجيتسنيـا وولف والفيلسوف الفـرنسى برجســون والموسيقار البولندى بـادروفسكى . . وأن تحصل الممثلـة الألمانية مـارلين دتريـش على الجنسيـة الأمريكيـة وأن تظهـر أعمال بارزة فى الفكـر المعاصر مثل (وجع القلب) ، للشاعر الفرنسى أراجون (سقوط باريس) للكاتب الروسى ابهرنبورج و (انشودة برنادت) للأديب النمساوى فرانتس فرفل ومسرحية (الأم شجـاعة) للأديب الألمانى برشـت وكتاب (التاريـخ قصـة الحرية) للفيلسـوف الإيطـالى بندتـو كـروتشـة . . وأن يقوم المثـال البريطانى العالمى هنرى مور برسـم لوحات للحياة فى المخابىء تحت أرض لندن . .

ولسوء حظ اليابـان كانت كل حاملات الطـائرات الأمريكية فى عرض المحيط جاهزة للانتقام فى أى وقت !

وبعد الهزيمة بعشرين يوما ذهب الزعيم البريطانى تشرشل إلى البرلمان الأمريكى وألقـى خطابًا تاريخيًـا . . أعلن فيه لأول مرة أن أمـه أمريكية . وقد صفق لـه الأعضاء طويلاً ، كـأن هذا الاعتراف قد عوضهـم عن عار بيرل هاربـور . . ثم رفع تشرشل يـده بعلامة النصر التى أصبحـت تقليدًا منذ ذلك اليوم !

ولا تزال هـذه المعركـة ومقدماتها لغـزًا يحير المؤرخين . وكل يـوم تظهر كتب باجتهادات جديدة . من بين هذه الاجتهادات أن تشرشل كان يعلم عـن هذا العـدوان . ولكنه لم يشـأ أن يفصح عنـه حتـى تدخـل أمريكـا الحرب . فقـد عرفـت المخابـرات البريطانيـة مقدمـات الغزو عـن طريـق

اختراقها للشفرتين السحرية والدبلوماسية . . وأرسلت معلوماتها إلى تشرشل الذى جمع رجاله وعرضها عليهم سعيدًا بذلك . .

وتقول مذكرات طبيب تشرشل د. موران إن تشرشل هو أحد المصابين بالإمساك المزمن مثل الإسكندر الأكبر ونابليون وأيزنهاور . وإنه كان من عادته أنه يتطوع بعلاج كل أصدقائه . حتى فى حضور الأطباء . وإن معظم قرارات تشرشل قد اتخذت فى دورة المياه لأنه يجلس فيها طويلاً يقرأ ويكتب وعندما علم بالعدوان على (بيرل هاربور) رقص تشرشل وزال عنه الإمساك دون أية عقاقير . .

وأشار إلى من حوله بكأس من الويسكى وكوب كبير من القهوة . ورفضت السكرتيرة إلا نصف الكوب ، تماما كالشعب البريطانى . وشكرها على أنها قد نبهته إلى ذلك . . ثم طلب منهم أن يتركوه ينام فى عمق . فإن النشوة التى أصابته لا يمكن أن يقاومها بل كان ينتظرها من وقت طويل . . ثم التفت إلى مساعديه : إننى سوف احتفل بدخول أمريكا الحرب فى أحلامى السعيدة !

ودخل ونام سبع ساعات . لكى يصحو على ما توقعه من أخبار . لقد أعلنت أمريكا الحرب على اليابان . .

وكان الساسة الأمريكان قد زهقوا من الحروب الأوروبية . . وقرروا أن تعود أمريكا إلى عزلتها عن مصائب أوروبا . ولكن قرار دخول الحرب ضد اليابان هو قرار بدخول أمريكا كل صراعات آسيا . . ومن يومها وهى غارقة فى المشاكل حتى سحبت قواتها من الفلبين إلى موقع آخر فى آسيا وقبل ذلك دخولها حرب الخليج ورعايتها لمفاوضات السلام ومساندتها لجورباتشوف مرة ويلتسين مرة وقلقها من الوحدة الأوروبية ضدها ، ومن العملقة اليابانية فى كل الأسواق وتمدد سياحها على الرمال الذهبية والمياه الفضية فى ميناء بيرل هاربور ووضعهم النظارات السوداء على عيونهم حتى

لا يروا آثار الحرائق على المنشآت العسكرية فى الميناء ، ولكن حتى يراها الأمريكان فلا ينسوا .

ولكن الأمريكان إذا نسوا انتصارهم العسكرى على اليابان فكيف ينسون هزيمتهم الاقتصادية وتغلغل اليابان فى كل الشركات الأمريكية وشراء الجزر والمصانع فى القارات الخمس . . وتهديدهم لكل الصناعات الأمريكية . . ثم قدرتهم الفذة على تغطية العجز الأمريكى فى الميزان التجارى رغم الحماية المستمرة للسلع الأمريكية ؟!

ولا يزال الجرح الأمريكى ينزف حتى اليوم . . فقد طلب الأمريكان إلى اليابانيين أن يعتذروا عن هذا العدوان . فاعتذروا . فقد ساعدتهم أمريكا على النهضة الصناعية .

وجاءت قوات أمريكية تدافع عنهم (؟!) وتمنعهم فى نفس الوقت أن يكون لهم جيش . وغيرت دستورهم حتى لا ينص على أن الإمبراطور إله . . وأنه صاحب الأمر والنهى . لأنه هو الذى أمر بالحرب . فكان أمره مقدسًا . ونص الدستور على أن يكون لأى يابانى أى دين أو أكثر فى نفس الوقت . حتى لا يحتكر الإمبراطور الدين والعبادة ، ولذلك فاليابانى من حقه أن يكتب فى جواز السفر أنه مسيحى تاوى ـ أو كونفوشى أو بوذى أى له أكثر من دين . ولكن اليابانيين أعادوا بالتدريج كل ما كانوا يؤمنون به . . وفى مقدمة معتقداتهم : الملك إله الشمس . . وتغيرت معالم الحياة اليابانية . . فلم تعد المرأة اليابانية تحمل طفلها على ظهرها . فإذا حملته فإنه يلف ساقيه حولها . ولذلك كانت السيقان معوجة . وكان لابد من تقويمها بارتداء الكيمونو الضيق الذى يشد الساقين الملتويتين إلى الداخل . . ثم إن الطعام قد تغير فزادوا طولا وعرضا وتغيرت ألوانهم ولكن هذه التغيرات ظاهرية فقط . فقد تمسك اليابانى بمعتقداته وأسراره الصناعية والتكنولوجية وتفوقه فى أسواق أوروبا وأمريكا . وليست الوحدة

الأوروبية إلا محاولة للـوقوف فى وجه اليابـان وأمريكا معا . والأثـر الوحيد الذى تركه الأمريكان فى اليابان هـو لعبة البيسى بول ـ فهى اللعبة الشعبية الأولى فى اليابان أيضًا !

أما فى أمريكا فقد سقطت قلوبهم فى أرجلهم ونكسوا كبرياءهم ودفعوا حكومتهم إلى الثأر . وكان واجب العلماء الأمريكان أن يجدوا حلا فريدًا . وقـد سـارع العلماء إلى تحقيق حلمهـم الكبير بصنـاعـة القنبلة الـذريـة . وصنعوها . وبعض العلماء عارض هـذه الجريمة العلمية . ولكن الشعب الأمريكى كان أقوى من العلماء . وكانت الرغبة فى الانتقام هى كل الغرائز الأمريكية . . بل هى التى جعلت الشعب الأمريكى يعيش تجربة التقشف وهو البلد الغنى . ولم يكن غريبًا أن تصـدر نقابة الخياطين قرارًا بأن تكون الملابس قصيرة وأن تكون البدل بصف زراير واحد ـ فلا قماش ولا زراير .

أما الباقى فقد قامت به المرأة مـن تلقاء نفسها . فالنساء قد استخدمن البنجر المسلوق فى طلاء الشفاة . . واستخـدمن الهباب فى رسم الحواجب والعين . . أما الـرجال فـأطلقوا لحاهـم فقد انعـدمت أمـواس الحلاقة . واكتفوا بـالاستحمام بلا صابـون ـ وكل ذلك يهون مـادامت الدولـة سوف تنتقم . .

وبعد خمسين عاما من الصداقة الأمريكية اليابانية والمحاولات المستمرة لنسيان ما حدث طلب الأمريكان إلى الرئيس بوش أن يعتذر هو الآخر عن ضرب اليابان بالقنابل الذرية ـ وكانت السيدة مرجريت تاتشر فى أول زيارة لتشكوسلوفاكيا بعد تحريرها من السيطـرة السوفيتية قد اعتذرت عن موقف بريطانيا أثناء الحرب . .

ولكن بـوش قال : أنا ؟ أنـا اعتذر ؟ لا يمكـن أن يعتذر هذا الـرئيس الأمريكـى . لقد حـاربت وأسقطـوا طائرتـى فوق جـزيرة شيشـو جيما فى البحر. وكدت أغرق لولا أن أنقذتنى إحدى الغواصات . . إننى أتذكر ما

حدث فى كل مـرة أرى الرسميين اليابانيين . أنا أعتذر وقـد رأيت زملائى يطيرون فى الهوار نصفين . . زملائى فى الطـائرة وفى الغرفـة . مستحيل أن أعتذر . وإن كنا أصدقاء الآن ويجب أن ننسى !

واليابانيون يضايقهم أن يتحدث عنهم الأمريكان فيقولوا : يايس . أى اليابانيين ـ اختصارًا للكلمة الإنجليـزية . . أو يقولوا : نيبس . اختصارًا للكلمة اليـابانية . . ويضـايقهم جدًا أن يتحـدث عنهم الكتاب عنـدما يتذكرون مأساة بيرل هاربور فيقولـوا : نحن ننهزم من هؤلاء الأقزام الصفر ذوى الأسنان المسـوسة . . أكلـة الجمبرى حيا والبصـل مسلوقـا والعيون تنظر فى كل اتجاه ، وأصحاب الابتسامات التى لا معنى لها .

وعلى الرغـم من أن الأمـريكان قد تـدخلوا فى الكتـب المدرسية وغيروا التاريـخ . فإن كتـب التاريـخ اليابـانية إذا مـا تحدثت عـن العدوان على الصين فتقول ووصلت قواتنا إلى الصين . .

وعندما يتحـدثون عن ضرب بيرل هاربـور يقولون : وحلقت طـائراتنا فوق الأسطـول الأمريكى . . وعنـدما يتحدثـون عن الاحتلال الأمـريكى لبلادهم يقولون : الوجود الأمريكى بيننا . .

وعنـدما يتحـدثون عـن ضرورة نسيان مـا حدث تقـول الكتب : مـن الصعب حـذف اسم بيرل هاربـور من التاريـخ . . وقد فشلت المحـاولة اليابانية فى ذلك !

فكـل محاولة لكـى ينسـى اليـابانيـون ذلـك مستحيلـة ـ ولـن ينسـى الأمريكان أيضًا . . وإذا كـانت اليابان بلا جيش ، فقـد توجهت بشبابها إلى المصانع ووفرت نفقات التسليح وتغيير السلاح ـ تمامًا كما فعلت ألمانيا . حتى صارت ألمانيا أقوى دولة صناعية فى العالم ، واليابان أيضًا . . فهناك عبقرية إبداعية لا يمكن هزيمتها !

وفى كتاب للأديب اليابانى أورى اكيتوكو عن بيرل هاربور بعنوان (كان

يا مـاكان) يدور فيـه هذا الحوار بين اثنين جـالسين فى بلكونة أحـد فنادق بيرل هاربور . وقد حرص المؤلف على ألا يكون لهما أى اسم . كأنه يريد أن يقول إنهما يمثـلان الشعب اليابانـى كله ، ولا أحد يعرف إن كـان الاثنان يابانيين أو أمـريكيين أو أحدهما يابانيا والآخر ألمانيـا . . إنهما اثنان ينظران إلى المحيط الهادئ فى ليلة قمرية ويتحدثان أو يتناجيان أو يتباكيان . .

ـ هه . . انتهى كل شىء ؟

ـ لم ينته شىء . فكل شىء يبدأ من جديد . . ولكن بصورة أخرى . .

ـ تقصـد أن الحرب الاقتصـاديـة هى استئنـاف للحـروب السيـاسيـة والعسكرية . .

ـ أقصد أن هناك ألف بيرل هاربور فى هذه الدنيا . . وأن المعركة معلنة والأسلحة معلنة ولكن أحدًا لا يعترف بذلك .

ـ نحن إذن فى حالة حرب ؟

ـ هذه الحرب من أجـل كبرياء شعب وليست من أجل غطـرسة حاكم أو غرور حزب سياسى . .

ـ كأنـك تقـول إن الشعـب الأمريكـى كلـه قـد انهزم فى بيرل هاربـور والشعب اليابانى كله قد انتصر . .

ـ بل انهزمـت أمريكا أيضًا فى هيروشيما ونجازاكى . . فلـم نكن نعرف أن الرجـل الأبيض متـوحش إلى هـذه الدرجـة . . وقد انتقمـت الشعوب الصفراء والسوداء من أمريكا مما جعـل الشيوعية هى الحل فى الدنيا كلها . وإذا كـان الشعـب اليابـانـى قـد أصيـب حتى الموت . . فـإن الشعـوب الأمريكية والأوروبية قد توارت خجلا من بشاعة ما حدث !

ـ إذن لا أمل فى النسيان ؟

ـ لا يصـح أن يكون عنـدنـا أمـل فى النسيـان . . فالأمـل والنسيـان

متناقضان . . كيف ننسى ما حدث . . وكيف يكون عندنا أمل فى القضاء على الماضى . . كيف تأمل اليوم فى إعدام الأمس شنقا ؟! إن آلهة الإغريق قد عجزوا عن ذلك . . وهم يحاولون أن يجعلونا ننسى أننا قدسنا الإمبراطور . . وأننا عبدناه لأنه جمع صفوفنا ووحدها على النهضة والتطور والتفوق . . إنه من السهل جدًا أن نقول ذلك . . هل نذكر القصة التى حفظناها ونحن أطفال عن جندى ذهب إلى الجبهة . . ولكنه لم يستطع أن يحمل سلاحا لأنه نسى أنه مقطوع الذراعين . . كيف ينسى عجزه وعاره . . لقد تذكر النصر ونسى عجزه عن ذلك . . فلما ذهب إلى الجبهة كان قد نسى ذراعيه . . ولكن بعد أن عاد إلى البيت وجد ابنه الصغير يحمل سلاحا . . فطلب الرجل إلى أهله أن يقطعوا ساقيه أيضًا حتى لا يتحول بين الناس صورة من الأمل الفاشل والكبرياء المهيض . . لن ننسى ياسيدى!

ـ ولكنى نسيت .

ـ أنت ؟ أنت تحاول أن تنسى أنك نسيت . . أنت تتذكر . . انظر إلى الصور التى علقتها على جدران بيتك . . أبوك الذى مات وأمك التى احترقت . . وأختك التى اختنقت . .

ـ إذن لأى شىء جئنا هنا .

ـ هنا بالذات . . فى أحد فنادق بيرل هاربور ؟ . . لكى نضع لوحات قاتمة السواد يتوسطها شلال من الدم وسط جبال من الأشلاء . . ثم نضع لها إطارًا جميلاً . . فالصورة مروعة والبرواز رائع !

شالوم عليخم أيها العرب
وسلام علينا أيها المصريون !

فلنعـد إلى الاهتمام بحالنـا نحن ، فقـد كان اهتمامنـا بفلسطين خمسين عاما . . وانشغلنا عن قضايانـا . . والفلسطينيون بعد أن صافحوا وعانقوا ودارت المحاورات بالعبرية : شالوم . . شكالوم . . عليخم فإنهم تلامذة اليهـود المتفـوقـون ، قـادرون على إكمال المفـاوضـات وفى صميـم الأرض المحتلة . . بين إخـوتهم وأشقائهـم وهتافـاتهم . وتصفيقهم . . وسـوف يـوزعون الشربـات ويـذيعون الأغنيـة الخالـدة التى أذاعـوهـا يوم اغتيـال السادات ويوم ضرب العراق للسعودية والكويت . . أغنية أم كلثوم : افرح ياقلبى !

ولـن تكـون هنـاك مشكلـة مـن أى نـوع بين وفـود فلسطين وسـوريـا وإسرائيل . . فهـم يعرفـون تماما مـا يريدون ــ أقصد مـا يريـده اليهود . ولذلك يجب أن ننصرف نحن إلى حالنا وإلى مشـاكلنا فنحن حققنا السلام بالكرامة ونريد أن نكمله بالرفاهية .

وأولى مشاكلنا هـى مشكلة الأمية . . نصف شعبنا جاهـل . . جاهل فى الاستهلاك جـاهل فى الإنتاج . . جاهـل فى المبالغة فى خطورة القضـايا

العربية التى ابتلعتنا وشربت وراءنا ألوف ملايين الدولارات تنفق نصفها على السلاح والنصف الثانى تودعه فى البنوك اليهودية لينفق منه الفلسطينيون على الكباريهات والراقصات والمخدرات والمتفجرات !

والمشكلة الثانية عندنا هى الأرض يجب ألا نخجل من أن الخبراء الإسرائيليين هم الذين ساعدونا على تطور صناعة الفاكهة والخضراوات التى ملأت الأسواق . . وساعدونا على استخدام الماء المالح فى تطوير زراعة الطماطم . . وإن طريقة الرى الفرعونى هى سبب كل المصائب . ويجب أن نذهب فى تطوير الزراعة وتوزيع الأرض إلى مرحلة جديدة . فبدلا من إعطاء الشاب خمسة أفدنة يبنى على نصفها بيتا واصطبلا وحديقة وحماما ، فلنعطه عشرة أفدنة . . ولنشجع الشباب على المزارع التعاونية أو الجماعية . . أى إنهم يملكون الأرض ويتقاسمون عائدها . فقد تبددت خيرات مصر من تفتيت الملكيات الزراعية . .

والمشكلة الثالثة هى مشكلة هجرة العمال المصريين . لا اعتراض على الهجرة . فكل مواطن حر فى أن يذهب إلى أى مكان بشرط أن يكون فى أعيننا ــ أى نرعاه ونهتم به ولا ندوخه السبع دوخات إذا أراد شهادة ميلاد لابنه . . أو توثيق عقد زواج . . إن المصريين يتلطعون على أبواب السفارات والقنصليات ـ عيب علينا . وفضيحة لنا فى الخارج . ثم إن هناك نوعيات رديئة من المهاجرين الذين يدخلون البلاد الأجنبية سرا ومعظمهم يدخل ويبقى فى الشارع لينام كل عشرة فى غرفة ــ النمسا مثلا .

أو يظلوا نائمين فى الزوارق يتاجرون فى العملة وفى غيرها ولا يدخلون هذه البلاد ـ اليونان مثلا . .

وأذكر أنه دارت مناقشات فى إحدى جلسات مجلس الشورى عن عدد المصريين فى الخارج وتحدث رئيس المجلس ووزيرا الداخلية والخارجية .

ولم نعرف بالضبط كم يكون عدد المصريين . . هـل هـم مليونان ؟ هل هـم ثلاثة ؟ هل هم خمسة ؟ .

أذكر أنـى ذهبت إلى استراليـا سنة ١٩٥٩ وكـان عدد المصريين ثـلاثة واحدة تزوجت جرسونا وواحـد فى السجن وأنا . . وذهبت إلى استراليا من عشر سنين وسألـت كم عدد المصريين قالـوا : نصف مليون . . وقـالوا . ياشيـخ لا . . لا . . ثلاثة أربـاع المليون . . وقـالوا : يا أخـى فشارون . عددنا لا يزيد عن ٢٠٠ ألف فى سيـدنى ونصف هذ العدد فى كانبرا وربع هذا العدد فى بقية استراليا . .

ولكنى فى مجلس الشورى انتهزت هذه الفـرصة لكى اعتذر للامام أحمد آخر ملوك اليمن . فقد سألته فى مؤتمر صحفـى : ياطويل العمر كم يبلغ عدد سكان اليمن ؟

فاهتز فى مقعده يمينا وشمالا طربا ومتحـدثًا بنعمة الله تعالى وقال : ما شاء الله مـا بين خمسة مـلايين وأربعين مليونًا !! وجعلتهـا مادة للفكـاهة ولكن من الواجب أن اعتذر فورًا فنحـن رغم كل أجهزة المحاسبة والتعداد واستخدام الكـومبيوتر لا نعـرف كم عدد المصريين فى الخارج . . فهـم ما شاء الله خمسة وخميسة ما بين مائتى ألف وخمسة ملايين !

والصورة المؤلمة التى تـراها فى شوارع فيينا وبقية المدن النمساويـة توجع القلب . .

فبين الباعة السريحة فى فيينا خريجو جامعات مصرية . . قابلت واحدًا منهم فى الطائرة قـادمًا من الكويت . . وقـدم لى أوراقه فعرفت أنـه خريج كلية العلوم « قسم الكيمياء » . .

ويفضل أن يسرح بالصـحف فى البرد وبين السيارات وأحيـانا تحتهـا بـدلا من أن يعـود إلى القاهـرة يكسب الملاليـم ويقترض الجنيهات ثـم لا يعرف كيف يتزوج وإذا تزوج لا يستطيع أن يكون له أولاد وإذا كان له أولاد

فإنـه لا يريـدهـم أن يسرحوا بـالصحف يتسـابقون فى الموت : بـالالتهاب الرئوى أو تحت العجلات !

والمشكلة الرابعة فى مصر هى : الإدارة . . الإدارة . . أرجو تكرار هذه الكلمة حتـى نهاية الصفحـة . فالإدارة فى مصر جاهلـة . والدولـة جهاز وكل جهـاز له قواعـد علمية لإدارته وصيانتـه من أجل الإنتـاج الوفير أولا وبعد ذلـك الإنتاج الجيـد . وبعد ذلـك الإنتاج القـادر على المنافسـة فى الأسواق العالمية . . والغش التجارى من أهم سمات التاجرالمصرى . ففى مصر شركات متفوقة متطورة ومفخرة لمصر . . ولكنها قليلة . .

اخطف رجلك إلى المدن الجديدة وأنت ترى العجب . . فإذا أغمضت عينيك عن الجلاليب التى فى الشوارع المرصوفة الضيقة (؟!) فسوف يخيل إليك أنك فى ألمانيا . . لكنهـا هذه المصانع الرائعة قليلـة . والقليل وسط الفوضى الكثيرة ، أقليـة مسحوقة . . ولكن الغش هو أهـم معالم التجارة المصرية ، والصناعة المصرية والإدارة المصرية وأخلاقيات الصناعة والزراعة والتسويق والتمويل والاستثمار . .

آه وصلنا إلى كلمـة الاستثمار عن غير قصـد . . أما الاستثمار فنحـن لم نتقدم فيه خطوة إلى الأمـام فعندنا ولله الحمد ألوف القواعـد والقوانين التى تجعل المصريين يهربون من بلادهـم وعندى أمثلة كثيرة سمعتها بنفسى من مصريين حولوا فلوسهم إلى وطنهـم الغـالى . ولكن الفلوس ليست كالحمام الزاجل إذا ذهبت تعود ، وإنما مثل الغربان إذا ذهبت لا تعود . جاءوا إلى مصر ونقلوا المصانع وحاولوا تشغيلهـا فامتدت الأيدى تطلب (المعلوم) . والمعلوم رشوة . . يا الدفع ، يا الصدأ ـ وصدئت المصانع وهرب المصريون قبل أن تأكلهم البارومة التى هى البيروقراطية المصرية . .

ولا تـزال صـورة الكاتـب المصرى (الجالـس القـرفصاء) هـى صـورة الصناعة والزراعة والتجارة فى مصر . . كل شىء قاعد خامد أو كل شىء

واقف على حيله ـ مع أن من أكثر الكلمات شعبية فى مصر هى . ماشى . . ماشى . . ولا شىء يمشى إلا بطون المستثمرين والمخلصين من المصريين !

ولا يزال المجتمع المصرى مجتمع فلاحين . . والفلاحة ليست شتيمة . ولكنها مرحلة من مراحل التطور فى السلوكين الاجتماعى والعقلى . . وهى المرحلة التى تسبق الصناعة فى سلم التطور الحضارى . فنحن فلاحون نزرع ونقلع ونبيع ونشترى كالفلاحين . وإذا كانت المصطبة هى من رموز الكسل والتنطع الريفى ، فإن المقاهى وغرز الحشيش وطوابير الفلاحين الهاربين من الأرض إلى الهجرة أوالعمل فى المدن ، هى أهم المعالم الجديدة . . ولكن زراعة الأرض وريها وبذرها وتحصيلها : فرعونى أصيل . .

فكما وصفنا عمرو بن العاص : نبذر الحب وننتظر الثمار من الرب . أى نبذره بيد ونرفع اليد الأخرى إلى السماء نطلب من الله أن يبعد عنا الدودة والعنكبوت وننسى الزراعة . كيف ؟ لقد تعودنا على ذلك من ألوف السنين . . ثم ننام فى الغيظ ونترك لجاذبية الأرض أن تسحب الماء الحلو وتنزل به إلى المصارف . . وبذلك نستهلك فى رى الفدان الواحد ما يكفى لرى مائة ألف فدان فى إسرائيل التى تروى أرضها الخصبة جدًا بالقطارة . قطرة عند كل ورقة وقطرتان عند كل شجرة ـ ويجب أن نتعلم ذلك والرسول عليه الصلاة والسلام وهو ابن البادية والذى ليس عنده ماء وفير ينصحنا بالاقتصاد فى الماء ولو كنا على شاطئ بحر ـ وهذه هى القاعدة الأولى فى الاقتصاد والترشيد مهما كان ثراؤنا المائى . .

والمشكلة الخامسة يجب أن نتفق فيما بيننا : هل نريد الشباب أن يتعلم فى الجامعة أو لا نريد ؟ وإذا كنا نريده فلماذا الأفلام والمسلسلات تضع الفتاة أمام هذا الاختيار الصعب : بين رجلين . . هو كجامعى صغير

المرتب بلا شقة وبلا مستقبل واضح وبين واحـد آخر من الطبقة الوسطى قادر على شراء السيـارة والثلاجـة والشقة والأكـل والشرب وتشغيل أخـوة العروسة وحج أمها وأبيها . الاختيار صعب وهذه الشابة تكون مغفلة إذا لم تتزوج نصف المتعلم كامل الثراء والمقدرة على إسعاد الجميع . .

فكأننا علمنـا البنت والولد لنجعلهما يندمـان معا على التعليم . وعلى أنهما لم يختصرا الطريق إلى الفلاحة والعمل اليدوى والبنات لهن رأى آخر . فالبنات تفضل الشاب الغنى القادر على أن يحمى ويسعد . . وياليته كان عجوزًا . أى يعيش له كـام سنة وبعدها يتوكل فتتـزوج هى حبيب القلب المتعلم الكحيان نظرية !

ولكن يبقى الشعـور بالندم : ندم الأبوين على أنهما أضـاعا دم القلب على المدارس والدروس الخصوصية والجامعة والنتيجة : إن الابن غير قادر على الـزواج والبنـت كـالبيـت الـوقـف . . والحل السعيـد عنـد الـرجـل الكسيب . . وسوف يقـال لها : ما قيمة الشهادة . . الرجـل يساوى ما فى جيبه . . ولا يعيـب الرجل إلا الجيـب . . والشهادات أكثـر من الهم على القلب . . وتـوفيق الحكيـم أعطى جائزة الـدولة التقديـرية لحفيـد الفنان صـلاح طاهـر وقـال هات لـه شـويـة تراب فى الـورقـة دى وجاء الطفـل بالتراب . . وطلب إليه توفيق الحكيم أن يلقى بها فى الزبالة . .

فهذه الـورقة لا تساوى وزنها تـرابا . . لماذا لا تمنح الـدولة مثل تـوفيق الحكيم مبلغًا من المال كالذى تعطيه للـص لكى يصلح حاله . . والذين من قبله رفضوا جـائزة نوبل بفلوسها كانت حجتهـم أن هذه الشهادة مثل طوق النجاة قد ألقوه للغريق عندما وصل إلى الشاطىء ! !

وأخيرًا من الذى قال إن الدولة بـأجهزة الأمن قد قضت على المخدرات وأقفلت غرز الحشيش ! نحن الذين نقول ذلك . إذن ما اسم هذا المسرح المصرى : ما اسم هذه الأجسام العارية والألفاظ التى هى أكثر عريا . وما

المعنى ؟ وما الهدف وما الرسالة ؟ المعنى : تهريج . والهدف . تسلية . . والرسالة : حششوا أعانكم الله !

والناس ليسوا فى انتظار هذه النصيحة . فعندما تذهب إلى معظم هذه المسارح فأنت أمام هذيان له شكل . . والشكل ليس مربعا ولا مدورا . شكل والسلام . . أى له أول وله آخر . . وله حكاية ننتظر نهايتها الراقصة . . لا بأس ولكن هذا الهذيان على المسرح ومقابله هذيان آخر من المتفرجين . كأنها حفلة زار للأعصاب والخيال . . ويكون العرض المسرحى مثل (جلسة) أو (قعدة) فى غرزة حشيس . . يتعاطى فيها الناس الحقن والبرشام ويشمون هواء أزرق يشيع الخدر والانتشاء . ساعة . . ساعتين . . ثلاثا . . فإذا خرج الناس واصطدموا بالواقع أمام باب المسرح . . تكون جلسة الحشيش فى داخل المسرح قد عششت فى دماغهم تمامًا . . فكل كلمة جوزة . . وكل جوزة ألف نفس يدخل الدماغ فالعمود الفقرى فالركبتين . . فالاسترخاء والراحة العصبية ـ لاشك فى ذلك . . ولو أن الذين يتفرجون يعملون ويتعبون ، فمن حقهم أن يستريحوا ولكن المصيبة أن أحدًا لا يعمل . وإن متوسط ساعات العمل اليومى لجميع العاملين فى مصر ـ كما أعلن جهاز الإحصاء ـ ربع ساعة يوميًا . . تصور أنت نعمل ربع ساعة نستريح فيها ٢٣ ساعة . بالذمة ما اسم هذه العمل الذى نقوم به ، ثم نستريح منه يوما إلا ربع ساعة ؟

لا رواد الفضاء ولا الطيارون ولا الغواصون يلقون هذا التكريم العظيم لما يقومون به من مجهودات على الحافة بين الموت خنقا والموت حرقا !

وما دام شاغلنا الأول هو ماذا نأكل وأين نصرف مخلفاتنا ، فى الأرض أو فى البحر أو فى الجو ، فنحن بدائيون . . حتى لو وضعنا الأكل فى علب وحتى لو جعلنا الصرف الصحى بالكومبيوتر . . فهذه اهتمامات حيوانية غريزية . . القطط والكلاب تتصرف أحسن منا . . فإذا لم يكن عندك

كلب فانزل إلى الشارع واتفرج على أساتذتنا الكلاب كيف . . وكيف يوارى . . ولم يدخل مدرسة ولا جامعة !

هذا إذا وجدنا فى أن ننظر عبر حدودنا إلى ما تفعله أقلية الأقلية فى القارات الخمس . . . ! أخيرًا جدًا . . .

* * *

يجب أن ننظر وراءنا فى غضب ـ فقد أضعنا المال والوقت والطاقة والكرامة . . وأن ننظر أمامنا فى أمل . . هناك أمل . بشرط أن يكون هناك علم . . علوم . . خطة . . استراتيجية . . وكلها كلمات مكررة . . ولأنها مكررة فقد تبدد معناها ونحن الذين كررنا المعانى حتى زهق منها الناس . . بلاش النظر إلى إسرائيل . . انظر إلى الاتحاد السوفيتى وإلى دول أوروبا الشرقية . . بلاش أوروبا الغربية واليابان وأمريكا . لأنه من الأفضل أن ننظر على قدنا . . إلى الذين مثلنا . . الاتحاد السوفيتى دولة عظمى وقعت . ولكنها سوف تقف . . فهى من أغنى دول العالم . ولكن خيبتها مثل خيبتنا : سوء الإدارة . . أو إدارة الفلاحين للزرائب . أى الإدارة غير العلمية . . ولكن سوف تقف روسيا أسرع منا . . وهى أسرع منا عرفت الداء والدواء . . الداء : الفكر الجامد العقيم . . سيطرة الحزب . . سيطرة أمراء الحزب وكوادر الحزب . . ووضع أفكار الناس فى قوالب مثل الجزم الصينية التى تلبسها الفتيات حتى توقف نمو أقدامهن لأن الأقدام المحندقة من معالم الجمال . . وإن كانت الأفكار الصغيرة المحندقة من معالم التخلف . . فهذه الأفكار الصغيرة الجامدة مثل المسامير الذهبية على قبور الفراعنة .

ثم إن السوفيت الذين اخترعوا القطاع العام قد هدموه . .

ويجب أن نندهش إلى غير حد لماذا نحن نتمسك بالقطاع العام .

لا أنسى مطلع قصيدة من الشعر الحلمنتيشى للشاعر الغنائى مأمون

الشناوى عندما حار فى فهم مصر هل هى ماركسية هل هى رأسمالية . والدهشة لا تزال قائمة ـ فقال : لا فض فوه أكثر من ذلك .

يا ترسملونا ياتمركسونا يلعن أبوكم على « ابونا » !

ونحن نستحق اللعنة لأننا سكتنا على ذلك دون فهم ، أو دون اعتراض أو احتجاج . . أو تكفير أو هجرة !

إلى الاتحاد السوفيتى يجب أن ننظر . . إلى عظمة الثورة والثائر . . إلى التغيير المروع الرائع . . والمروع هو الانهيار والرائع هو الاستجابة للثورة والإصلاح والانفتاح والتنوير . . لقد طرد لينين الله وكتبه ورسله من الاتحاد السوفيتى . . وقد أعادها جورباتشوف ، مع عظيم الاحترام إلى كل المعابد والمساجد . ومعهم جميعًا وقبلهم : حرية الإنسان وكرامته . . وتجديد قدرته على البناء والتطوير . . بهمة وصبر . .

فإن كان أحد يريد أن يتعلم فهذه هى الأمثلة والقدوة وإلا فسوف يتحول العرب إلى هنود حمر فى الشرق الأوسط . . أما العدد فلا يهم . . فقد استعمرت بريطانيا بعشرات الألوف من الجنود قارة الهند وعددها بمئات الملايين . . إنه الكيف وليس الكم . . والكيف المكثف الواعى النشيط عبر حدودنا . .

لقد مضى زمان الاستعمار بالقوات المسلحة ، والاحتلال ، وإنما الاستعمار الاقتصادى والسياسى والاجتماعى يبدأ من شاشات الكومبيوتر فى البنوك والبورصة والمصانع فيما وراء البحار . . فالعالم يتحرك كله كما تتحرك سفن الفضاء . . من قواعد فى أماكن مختلفة . . وكل شىء يحركونه ويتحكمون فيه عن بعد . . نعم عن بعد . . فى نيويورك ولندن وباريس وتل أبيب !

وهذه بديهية فى الاقتصاد السياسى أو الجغرافيا السياسية أو ما بعد البروسترويكا . . فإذا لم تستوعب هذه الحقيقة أيضًا : فلله يازمرى . .

وليس غريبًا أن أزمـر وأطبل فالزمر والطبل (عـاهة) مصرية . . ومن قـال إن فرقـة حسـب الله قد انـدثـرت . . أبدًا وحيـاتـك . . إنها عريقـة عميقة . . إن حسـب الله المزيكاتى هـو الاسم الحركى للمهيصـة المصرية التى تطبل لمن ذهب وتزمر لمن جاء . . فللجنازة طبل وللفرح زمر . . وإن لم تكن هذه حفلات حقيقية فهى إحياء لذكرى حسب الله المزيكاتى الذى لا أحد يعرف له مكـانا عاش فيه أو دفن فيه ، ولكننا قـررنا بإجماع شعبى ساحق أن ندفنه فى آذاننا وفى عيوننا .

ووسط الطبل والـزمر ضاعت الحقيقـة وهى أننا فى حاجـة إلى إصلاح شديد ، وتطهير عنيف ووقف نمو حسب الله المزيكاتى ! ! .

يقلعون الأشجار ويزرعون المسامير..!

(١)

لولا أن عددًا من الخواجات وقف يتفرج مندهشًا لما يفعله هؤلاء الأطفال، ما وقفت أنا أيضًا أرى وأندهش وألعن . . لقد كان للمنظر مذاق الفضيحة . أما الأطفال فقد راحوا بغيظ ينزعون أغصان إحدى الأشجار ثم يلقون بها فى النيل . انتهى المنظر . وجاء رجل لم يعجبه هذا المنظر أمام الخواجات فنزع غصنًا من الشجرة وراح يضرب الأطفال ويطاردهم . . وليؤكد غضبه هو الآخر فإنه ألقى الغصن فى الأرض وراح يدوسه ويلعن الأرض التى أنبتت مثل هؤلاء الأطفال . وحتى لا يتهمه الخواجات بالقذارة فإنه جمع حطام الغصن وألقى به فى النيل . . بالقرب من جثة حمار عائم تمشى وراءه جنازة من أوراق ورد النيل . هذه اللوحة الحية المتحركة لم تكن فى حاجة إلى من يوقع عليها بإمضائه . يكفى أن يقال إنها صنعت فى مصر ! .

أما الذى يمكن أن نفهمه من هذا العمل الجماعى فهو أن الأطفال أعداء الحياة ، والكبار أيضًا . وليس غريبًا أن يكون هذا سلوكا عاما مع

النبات والحيوان والـزهور والورد والقطط والكلاب . فـأعظم آثار مصر فى كل العصور : الأهرامات . . إنها أروع وأبدع مقابر اخترعها الفراعنة ! .

(٢)

هناك حديث نبوى معناه : حتى إذا قامت القيامة ، ازرع شجرة !

أى حتى لـو لم تكن لهذه الشجرة فـائدة . . حتى لو لم يجلـس أحد فى ظلها أو يـأكل ثمرهـا ، فازرع شجرة . المهـم أن تفعل شيئًا نـافعًا . . أن تكون إيجابيًا . أن تجعل الحياة تمتد .

المهم هو أن تبدأ العمل الإيجابى الذى من الممكن أن ينفع أحدًا !

وهناك حديث آخر يقول : حتى إذا كنت تتوضأ من البحر فاقتصد فى الماء ! .

أى حتى لـو كـان الماء كثيرًا جـدًا ، فيجـب أن تكـون معقـولا فى استخدامه . . فالمبدأ هو ترشيد الاستهلاك !

وحديث يقول : تصدقوا ولو ببلحة !

أى يجب أن يتصدق الإنسان بأى شىء ، مهما كان صغيرًا .

فالمبدأ هو أن يتصدق !

فإذا لم يجد ما يتصدق بهفالكلمة الطيبة : صدقة !

فلابد من الصدقة المادية أو المعنوية !

حتى فى زحام يوم القيامة والخوف والقلق والرعب ، يجب ألا تنسى أن تتوقـف لحظة وتغـرس فى الأرض شجرة دون أن تفكـر فى فائدتها . . وإنما فقط فى أن تتوقـف لحظة . وفى هذه اللحظة تقـرر أن تكون للحياة دورة . ولو كـانت هـذه حياة شجـرة . . فلو فعـل كل النـاس ذلك لتحـول يوم القيامـة إلى يوم قيامـة الأشجار والثمار ــ إن هذه الصورة أروع مـن الصورة

الإغريقية لرمز الإصرار والتحدى . . صورة الفتـى سيزيف الذى حكمت عليه الآلهة بأن يدفع حجرًا أمامه إلى أعلى الجبل . فلا يكاد يصل إلى القمة حتى يسقط فيعود الفتى سيزيف ويرفعه إلى الأبد . . وكان سيزيف البطل يفعل ذلك وهو يعلم أنه لا فائدة من أن يدفعه لأنه سوف يسقط . . ولكنه كـان يفعـل ذلـك بحماس كـأن هنـاك فـائدة . . كـأن هنـاك أمـلاً فى أن يتوقف . . إنـه مصر على أن يفعل بإرادته . . أى كـأنه يريد ذلـك ، مع أن آلهة الإغريق قرروا عذابه . . فهو يفعل بإصرار وإرادة كانه اختار هذا النوع من العذاب ! .

والفرق بين الصورتين أنه فى يوم القيامة يوم الفزع الأكبر يجب أن نتوقف عن الفـزع لحظة . وفى هذه اللحظة نقـرر فيما بيننا أنها إذا كانت هـذه هى نهاية حياة الإنسان ، فليست نهاية حياة النبات . . وإنه لا تزال هناك إرادة وقدرة وابتكـار . . وإن الإنسان لم يمت تمامًا . . لم ينته . . وإنـه لا يزال هناك أمل فى شىء ما !

(٣)

وفى الجنة كانت الشجرة . . وكانـت السبب فى أن آدم وحواء قد هبطا إلى الأرض . خطيئة آدم أنه أكل من الشجرة المحـرمة التى حرمها الله ونهاه عنها . يقـول آدم إن حواء هى التـى أغرتـه بذلك . . وتقـول حواء : إنها الحية . . وتقـول الحية : إنـه الشيطان الـذى تسلل إلى بطنهـا وتحدث من فمها . لقد أخطأ آدم وكان لابـد أن يهبط هو وزوجته إلى الأرض . ولم يكد آدم عليـه السلام يـأكـل من ثمار الشجـرة وهـى شجـرة الخلد المخصصـة للملائكة فقط ، حتى أحس أنه عريان . فتوارى فى بطن إحدى الأشجار . فلما ناداه ربـه وطلب إليه أن يخرج من الشجـرة قال إنه يستحـى . . وبعد ذلك بدأت اعترافات آدم بغلطته .

أما بقيـة صورة آدم طـولا وعرضـا فيرويها المؤرخ الإسلامـى الكبير أبو

جعفر محمد بن جرير الطبرى . يقول إن جبريل عليه السلام قد أعطى آدم كل بذور الجنة . . كلها حتى يزرع لنفسه جنة على الأرض ، وأعطاه عصا موسى وطولها عشرة أمتار فى مثل طول موسى عليه السلام . وأعطاه الحجر الأسود . .

وأعطاه جبريل كل أنواع البذور بذور لها قشور مثل الجوز واللوز والفستق والبندق والخشخاش والبلوط والرمان والموز . . وبذور لثمار لها نوى مثل الخوخ والمشمش والنبق والعناب . . وبذور لثمار ليس لها قشور أو نوى مثل التفاح والسفرجل والكمثرى والعنب والتوت والتين والخروب والخيار والبطيخ .

ثم أعطاه جبريل سبع حبات من القمح . وزن الحبة الواحدة مائة كيلو جرام . ولابد أن يكون آدم ضخمًا طويلا عريضًا لكى يكون قادرًا على أن يحمل كل هذه البذور فى يد أو يدين . . يقول الطبرى إن آدم عليه السلام كان يضرب السماء برأسه . ولذلك أصيب بالصلع . وتوارث أبناؤه الصلع ، أما الجمال كله فقد كان من نصيب واحد من أحفاده هو يوسف عليه السلام . .

وعندما نزل آدم إلى الأرض فقد وضع قدما فى بلاد الهند والأخرى فى بلاد العرب . . وكانت الخطوة الواحدة تقطعها الخيول فى أيام . .

وقد وصف لنا ابن بطوطة موطىء قدم أبينا آدم فى جزيرة سيرى لانكا . . وقد رأيت أنا هذا المكان فى سنة ١٩٥٩ . ففى سيرى لانكا جبل اسمه « قمة آدم » وعند قمة هذا الجبل توجد بحيرة . هذه البحيرة هى عبارة عن منخفض من الأرض له شكل قدم ضخمة ـ يقولون إنها قدم آدم عليه السلام .

وجبريل علم آدم كيف يبذر القمح وكيف يحصده ثم كيف يعجنه . ثم أتى له بحجر وقطعة من الحديد وضربها فتطاير الشرر وأقام آدم فرنا وعجن الدقيق وخبز الخبز . .

والمعنى أن جبريل قد علم آدم كيف يعيش . . وكيف يزرع لنفسه جنة أخرى على الأرض . .

ولم يهبط آدم إلى الأرض حزينا واضعا يده على خده مكتفيا بها فى الأرض من غابات وثمار . . وإنما طلب إليه ربه أن يعمل وبعث إليه بمن يعلمه كيف يعمل وكيف يأكل وكيف يزرع الحياة . . وكيف يكون هو الحياة التى تزرع الحياة ! .

وقد ترددت كلمة : زراعة البذور ألوف المرات فى قصة حياة أبينا آدم . .

أما كيف تحولت كلمة (ازرع) عندنا نحن المصريين ، على أنها : اقلع واقطع . . واخلع . . واقتل . . واقذف بها فى النيل لتكون جثة عائمة فذلك ما يحتاج إلى أن نفهمه ـ فذلك من أخطر أخطاء الترجمة ! !

فالذين لا يجدون الأشجار ليقطعوها أو يقلعوها فإنهم يفعلون شيئًا مدمرًا آخر . . فكل واحد يفتش فى بيته بإصرار وهمة ونشاط كأنه يبحث عن كنز . .

يبحث عن مسمار . . لكى يسحبه على كل السيارات الواقفة فى الشارع . . فإذا لم يجد السيارات فإنه يمر به على الجدران والأبواب . .

أو ذلك الذى يبحث فى كل مكان فى البيت عن موس حلاقة ويقف أمام المرآة . . بعد أن يكون الموس قد استقر فى جيبه الداخلى . . أما الذى أوقفه أمام المرآة فهو شىء آخر . . إنه يريد أن يطمئن على الصورة الجميلة التى سوف يكون عليها عندما يذهب إلى السينما ويجلس ويمد يده إلى أعماق جيبه ويخرج الموس ليمزق المقعد الجلدى الجميل المريح الذى يجلس عليه . . ولو كان هذا المقعد يسهل نقله . . لحمله كما يحمل الأطفال أغصان الشجر وألقى به فى البحر . أما لماذا يرتفع صدره عاليا هكذا فلأنه قد استراح إلى ما فعل . . أدى الواجب فى تخريب شىء ما . لماذا إنها

غريزة التدمير. وهل التدمير غريزة؟نعم غريزة كالبناء والزراعة والصناعة .

ولم نكن نعرف قبل عالم النفس فرويـد أن البقاء غريزة وأن الفناء غريزة أيضًـا . . فكما يحرص الإنسـان على أن يعيـش ، يحرص أيضًـا على أن يموت . .

فالـذي يقتل شجرة ، يتدرب على قتـل الحياة ، حياة قـط أو كلب أو إنسان . . أو يقتل نفسه أيضًا !

قـال لى صاحـب سينما جـديدة : فكـر معـى . . أريد أن أفهـم لماذا يحرص إنسـان بكامـل قـواه العقليـة على أن يبحث عـن مـوس أو سكين ويخفيه فى جيبه لكى يمزق المقعد الذى استراح عليه . . هل لو كان المقعد من الخشـب وفيه مسـامير كان يحطمه . . أو هـل كان يـرضى بـأن يمزق المقعد ملابسـه وينفذ إلى جلده . . هل كـان من الواجب أن أقـوم بمهمة تمزيق مـلابسه وجلـده . . هل هـو يعاقبنـى على ذلك . . يعـاقبنى على احترامى له . . وحرصى على راحته هو وغيره . .

لماذا كل من رأى حـائطًا أبيض يلقى عليـه الطين ؟ . . أو يكتب عليه ألفاظـًا نابيـة ؟ لماذا يضرب صناديـق الزبالـة حتى يسقـط كل مـا فيها فى الشارع ؟ لماذا إذا ذهب الطـالب إلى المكتبة العامة ، فإنـه يمزق الكتب أو يقطع أوراقهـا أو يسرق منها الصور التـى لا يستفيد منهـا ؟ لماذا إذا ذهب أحد إلى معرض من المعارض فإنـه يخرج قلم الحبر من جيبه ويلقى به على اللوحات ؟ وإذا رأى عشرون رجلاً أن الأسـانسير لا يقوى إلا على الارتفاع بعشرة أشخـاص يصرون على أن يـدخلـوا جميعـًا . . وسـوف ينهـض بهم الأسانسير ولكـن هذا يقصـف عمره . . فلماذا يحرض النـاس على قصف عمر الأسانسير والترام والأتوبيس والقطار ومقاعد السينما وأشجار الحدائق والأشجـار فى الشـوارع . . لماذا نـزرع المسـامير فى الشـوارع لكـى تنفجـر عجلات السيارات ؟! .

(٤)

إذا أردت أن تقرأ عن العجب العجاب فارجع إلى موسوعة فى العادات والتقاليد القديمة والرموز الدينية فى كتاب اسمه (الغصن الذهبى) للعالم الكبير فريزر .

سوف تجد أن الأشجار كانت معبودة . . قبل المسيحية . . وفى السنوات الأولى منها . وكيف أن كلمة (الغابة) مرادفة فى اللغات الأوروبية القديمة لكلمة (المعبد) . وكيف أن الأباطرة كانوا يتعبدون كثيرًا . . أى ينفردون بأنفسهم فى وسط الغابات . .

وكيف أن القانون الألمانى القديم كان يعاقب بالقتل من يقتل شجرة . . ثم خففوا الحكم إلى السجن وزراعة شجرة مثلها .

إما لماذا كانوا يضعون أكاليل الغار على رؤوس الأبطال ، فلأن الغار لا يصعقه الرعد والبرق . .

ثم كيف أن المسيحية فى القرن الأول حرمت الغار لأنه رمز الغرور والغطرسة . . إن المؤمن يجب أن يكون متواضعًا !

أما (شجرة الميلاد) فلا علاقة لها مطلقا بالديانة المسيحية . . وإنما هى عادات أوروبية منذ أيام الوثنية . . وقد نقلها إلى بريطانيا لأول مرة سنة ١٨٤٠ الأمير الألمانى البرت الذى تزوج الملكة فكتوريا .

وعندنا فى التاريخ الفرعونى أن الملك أوزوريس كان يرعى حياة النبات والثمار . . وإن له صورًا تدل على أنه يرعى الحياة بعد الموت . . أو إنه على الرغم من موته فلا تزال أصابعه تشير إلى استمرار الحياة . . وله صورة معروفة فى الآثار الإغريقية تقول إنه راعى القمح وكانوا يعتقدون أن الأشجار لها روح كالإنسان تماما . . وأن الشجرة ذات الثمار كالمرأة الحامل . . وأن الأشجار تسكنها أرواح الموتى . .

ولا نزال نعتقد نحن حديثًا أن أشجار الزينة فى البيوت تغضب ويبدو عليها التأثر حسب حالاتنا النفسية . . ومع الموسيقى تنتعش وتشرق أوراقها وزهورها . .

وقد ثبت علميا أن الأشجار لها لغة . . وأنها ترسل إشارات بعضها إلى بعض وأن هذه الإشارات الصوتية قد أمكن تسجيلها . . فإذا اقترب من الحديقة كلب أو إنسان أو جاءت فراشة ، فإن أقرب الأشجار إلى الزائر تنبه الأشجار الأخرى . هذه حقيقة علمية . . وأننا إذا قطعنا غصنا أو قطعنا ثمرة ، فإن الصورة الدقيقة التى التقطت تسجل لنا نوعا من النزيف . . أو الدموع . .

وللرسول عليه السلام حديث معناه .

ترفقوا بخالاتكم النخل . .

أى ترفقوا بقطع النخيل . . كأنها خالاتنا أو أمهاتنا أو بناتنا . . كأنها كائن حى . . لأنها كائن حى !

وقبل المسيحية كان من الضرورى أن نزرع فى مدخل البيت أو مدخل المكتبة شجرة . هذه الشجرة مصدر الخير . أو ملتقى الأرواح الطيبة .

وكثير من الناس يطلب أن يكون قبره فى ظل شجرة . وكثيرًا ما رأى الناس موتاهم فى أحلامهم يطلبون منهم العناية بالأشجار . ومن الطبيعى أن تبتسم إذا قال لك أحد أقاربك قبل أن يموت : أريد أنواعًا من الأشجار فوق قبرى . . شجرة كذا أو شجرة كذا . ولا تتركها حتى تموت من العطش . . طبيعى أن تبتسم . . فما الذى يشعر به من مات ؟!

وفى يوم رأيت أمى فى المنام ورأيت وجهها المضىء عاتبا . . ولم تقل شيئًا . ولم أفهم . وعادت فى حلم آخر وقالت لى : إن الشجرة قد سقطت . .

وذهبت إلى قبرهـا . ووجدت الشجرة الكبيرة قـد ماتـت وسقطت . . واقتلعها حارس المقبرة . وزرعت أشجارًا أخـرى . وعادت أمى وقد ازداد وجهها إشراقًا ـ يرحمها الله . .

وهنـاك عشرات القصص نسمعهـا مـن كـل الناس عـن الأشجـار فى المقابر . .

وفى أمريكا يسألون الفقيد قبل أن يصبـح فقيدًا عن الموقع الذى يختاره لقبره . . على بحيرة . . تحت شجرة أمام نافورة . . وعن نوع الموسيقى التى يجب أن يعزفوها فى جنازته . . أو فى أيام الذكريات . .

وفى أوروبا اليوم : أنـت لا تستطيع أن تقطع شجرة مـن أى مكان . . وإذا قطعتها فالعقوبة شديدة .

وفى كل عاصمة أوروبية تجد شجرة كبيرة لم يستطـع أحد قطعها ـ رغم وجود ملايين الأشجار عندهم فى الغابات .

تجد شجـرة فى قلـب الميـدان . . وتجدهـم قد تـركـوهـا تنمـو وتتفـرع ويـوسعـون الميـدان لكـى تمر السيارات بعيـدًا عنهـا . . رأيـت شجـرة فى فيينا . . هذه الشجرة قد أقاموا لها بيتا من الزجاج ولكن لم يفكر أحد ، ولن يجرؤ ، فى أن يقطعها ويزرع غيرها .

رأيت فى مدينة جراتس النمساوية فى حديقتها الصغيرة أشجارًا وأمامها أسماء الذين زرعـوها . . والذين يتـولون العناية بها . . ولـو فرضنا أن زارع هذه الشجرة ، فكـر فى أن يقطع منها فرعـا لوجب عقابـه . . فالشجرة لم تعد ملكا له . إنها ملك الدولة .

وقطع فرع من شجرة مثل قطع ذراع أى إنسان !

وإذا كانـت عندك حديقة ، فلسـت حرا فى قطع أية شجـرة منها دون إذن من الدولة . وإذا لم يسمحوا لك ، فلن تزرعها . وإذا زرعت فلابد أن

تحصل على موافقة بنوع الشجرة التى تزرعها !

لقد زرت مدينة براتسلافا منذ أيام . . إنها إحدى مدن تشيكوسلوفاكيا التى كانت شيوعيـة تعيسة ، وتحاول الآن أن تشم نفسها . . الشعب فقير مفهـوم الفقر مختلـف عن مفهـومه عنـدنـا . فالمواطـن التشيكى يجد كـل شىء. ثم إنه شعب صناعى مـن الدرجة الأولى . . ولكنه أفقر من الدول المجاورة لـه . . مثل ألمانيـا والنمسا وسويسرا . . فهـذا هو مفهـوم الفقر عندهم . . ولكنه شعب متحضر . . مثلا : الشوارع كلها مزروعة بالزهور والورد . . وتجد النـاس واقفين طوابير يشترون الورد الغالى الثمـن . ولكن أحدًا لا يسرق وردة ؟!

وأشجار الفواكه فى الشوارع ، ويذهب الناس لشراء الفاكهة بالواحدة من الفكهانى ، ولكن أحدًا لا يمد يده إلى ثمرة من شجرة تملكها الدولة؟!

طبعًا نحن نسمع ونندهش لأننا نقارن بين ما يمكن أن يحدث فى مصر وأنت تعرف وأنا أعرف !

رأيت فى الهند المغطاة بالغابات أن لـلأشجار أرقاما فى الطرق العامة . تماما كالسيارات أو كالبطاقات الشخصية . ولا أحد يقطع أو يقلع شجرة أما المعنى فليس من الصعب علينا أن ندركه ! .

(٥)

وهذه فـزورة قد حيرت كاتبنـا الكبير توفيـق الحكيم . فقد لاحـظ وهو جالس تحت شجـرة فى حديقة المجلس الأعلى للفنون أن شجـرة أخرى قد مدت فـروعها من حديقـة مجاورة . . إنها شجرة تفاح . وقد تـدلى التفاح منها داخل المجلـس الأعلى للفنون وتساءل الحكيم : ما حكـم القانون فى الذى يقطف ثمرة من هذه الشجرة التى لا نملكها ؟

فأنا لم أتسلق سور الحديقة المجـاورة وسرقت التفاحة . . وإنما التفاحة

هى التى تسلقت حديقة المجلس ثـم مدت ثمرتها إلى ما يقرب من فمى . هى التى جاءت ولست أنا الذى ذهبت . . فهل قطفها يعتبر سرقة ؟ وهل أنا إذا وجدت تفـاحة قد قفزت إلى طبقى ثم قشرت نفسهـا بنفسها وقفزت السكين وقطعت التفاحة إلى أربعة أجزاء . . وقفز واحد منها فى فمى ، هل أكون لصا ؟ !

وجعل توفيق الحكيم هذه قضيـة جدلية . فى إحدى مسرحياته . . ولم يصل إلى حل . . وسمعنا منه هذه القضيـة ولم نفكر فى أن نسأل أحدًا من رجال القانـون . . وإنما وجدناها نكتـة . . وإنها من نوادر توفيـق الحكيم وليست من مشكلات القانون !

أما القـانون الألمانـى المعاصر فقد بحـث ووجد حـلا . يقول القـانون الألمانـى إذا شجـرة تسلقـت إلى حديقتـك وألقت بظلالـهـا على الأرض ومنعتك هذه الظلال من أن تـزرع شيئًا . أى إن ضررًا قد لحق بك ، فمن حقك أن تأكل ثمرتها .

ولكن إذا ألقت الشجـرة ظلالها ولم تؤد الظلال إلى ضرر مـا ، فأنت لا تستطيع أن تأكـل ثمراتها دون إذن من أصحاب الشجرة . . أمـا قطع هذا الغصن الذى تسلل إليك فمستحيل تماما حتى لو ألحق بك ضررًا !

فزورة أخـرى رواها السيـاسى الإغـريقى الكبير ديمـوستين . يقول إن طبيبًا استـأجر حمارًا ليسافـر على ظهره من بلـد إلى بلد . . وكان صـاحب الحمار يمشـى وراءه . . وكـان الجو حـارًا والشمس حـارة . فما كـان مـن الطبيب إلا أن أوقـف الحمار ثم جلس فى ظـل الحمار . وهنا ثار صـاحب الحمار يقول : نحن لم نتفق على ظل الحمار . . فقـط أنت استأجرت الحمار ولم تستأجر ظله . ولابد أن تدفع مبلغًا إضافيًا . .

وكان الطبيب يقـول : إن ظل الحمار تابع له . . فأنـا استأجرت الحمار وكل ملحقاته !

وتماسك الرجلان وهرب الحمار . وكان هروب الحمار حلا سعيدًا ولكن هل من حق صاحب الحمار أن يتقاضى أجرًا على الظل ؟

وقد جاء الأديب السويسرى ديرنمات وتناول هذه النكتة التاريخية فى تمثيلية إذاعية بعنوان (محاكمة حول ظل حمار) وقد ترجمتها الزميلة اسيما جانو. . وقد انتهز الكاتب الكبير ديرنمات هذه القضية العجيبة وسخر من التقاليد والخرافات المدنية والأوضاع المعقدة بين صاحب الحمار ومستأجر الحمار وانتهزها وأمعن فى سخريته من القضاة والمحامين . وكيف أن ظل الحمار قد اتسع وامتد حتى شمل الناس جميعا وفرق بينهم . . فكل شىء له ظل . . فظل الجبال مثلا وظل السحاب مثلا كيف نحاسب الناس على الاستفادة منهما . . وكيف نعوضهم عن الأضرار التى تلحقهم ؟

واحترقت المدينة كلها . . وهرب الحمار وسط الحرائق وبين الشوارع الضيقة حتى احترق شعره وتسلخ جلده وذهب إلى القاضى ليسأله : قل لى ياسيادة القاضى هل تعتقد أننى الحمار الوحيد فى هذه القضية ؟!

(٦)

مسافة حضارية طويلة جدًا بين .

من يزرع شجرة ومن يقلع شجرة .

بين الذين يقدسون الأشجار وبين الذين يكدسون الأشجار .

إن بلادنا صحراوية . ومن الواجب أن نزرعها بالأشجار . فى الأعياد . نزرع شجرة . . فى الإجازة نزرع شجرة . . يجب أن نحتفل بكل مناسبة قومية أو شخصية فنزرع شجرة . .

فنحن عندما نزرع شجرة ، فإننا نزرع فى أنفسنا شيئًا أهم وأبقى من الشجرة : حب الحياة حب الجمال ـ فى وجه الصحراء التى هى ملايين من

ذرات ميتة ، فنتحدى الموت بالحياة . . بشجرة . . من لا يجد عملا يجب أن نجعله يزرع شجرة . .

إن كثيرًا من الدول ، رغم ما لديها من غابات ، فإنها قد أقامت الحدائق للتضامن بين الشعوب . . للحب بين الشعوب . . للسلام بينها . . وفى هذه الحدائق تجيء الوفود الرسمية ليزرع كل وفد شجرة .

ففى سنة ١٩٦٤ كنا فى كوبا ضمن المؤتمر الدولى للقارات الثلاث . آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية . . وفى الليل والأمطار غزيرة تماسكت أيدينا . . حبلا متينا . . ورحنا نرقص جميعا باسم الحب وباسم التضامن . وزرعنا شجرة . . مع أن كوبا خضراء . . كلها خضراء تتخللها بيوت حمراء . . ولكن لا نهاية لحب الحياة واستمرار الحياة والحرص عليها والاستمتاع بها أيضًا .

فليس حيا من لا يزرع الحياة . .

والرسول عليه السلام ينصحنا بأنه فى وجه الموت يجب أن نغرس الحياة ! .

(١)
هموم .. كلها هموم!

عندما ذهبت لألمانيا بعد الحرب مباشرة وجدت الدنيا الجميلة قد انهارت على رؤوس أصحابها . . المدن خرائب . . المصانع أكوام من الخردة . . والناس فى بعض ملابسهم . . والوجوه لونها الأحمر الوردى والأحمر الدموى أصبحت درجات من اللون الأصفر والباهت والأزرق . النفوس كسيرة والعيون حسيرة . . ماذا جرى لك يا أعظم البلاد .

ورأيت الشاب يقف واضعًا يديه فى الجيوب أمام والده . . ورأيت من تزوره فى مكتبه يمد ساقيه فى وجهك . . ورأيت بعض المديرين يمضغون اللبان . . وكنت أرى فى الوجوه والأدمغة والعيون كل الفلاسفة وعباقرة الموسيقى .

ووجدت فى المطاعم ضوضاء . . وفى الحانات صخبا . . وإذا أمسكت سيجارة فى يدك اتجهت إليك العيون . . وإذا أخرجت قطعة شيكولاته من جيبك خرجت لك من الأنفاس شقراوات الراين يطلبن فتفوتة . هذه إذن المانيا بعد الحرب فأصابت الحرب ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا . انكسر شىء هام سقط وانهار .

ليست الهزيمة فقط هى التى أصابت كل الناس . . وإنما الهزائم فى الحرب وفى الحقل وفى المصنع وفى البيت وفى العقل وفى القلب . . فكل الناس كأنهم أسرى حرب . وكل الناس كأنهم ضحايا والناس ضائعون بين الذى كان وبين الذى هو كائن . . وبين الأمل فى العودة إلى الماضى أو الحرص على الحاضر واليأس من المستقبل . . أى مستقبل .

قال لى صديقى الأديب البرتو مورافيا ونحن نتحدث فى شقته الجميلة عن الذى أصاب روما بعد هزيمة الفاشية والنازية معا هل تذكر الفتاة ادريانا . . بطلة روايتى « فتاة روما » . . إنها بالضبط صورة جميلة فاشلة نفسيًا مهزومة دينيًا ممزقة اجتماعيا وهذه كل إيطاليا . . فإذا أردت أن تدرس ما حدث لكل الناس فأمامك ادريانا . . إنها ليست فتاة من روما . . إنها من روما وباريس وبرلين ونيويورك . . صدقنى .

وصدقته . فما الذى حدث فى العالم كله فى أعقاب الحروب ؟ ماذا جرى لنا فى القاهرة وفى بيروت وماذا جرى لهم فى إسرائيل أيضًا .

كان ياما كان فى سالف العصر والأوان ! الصدق والشجاعة والتضحية والمواجهة فأنا أحبك معناها أننى فعلا أحبك . . وأكرهك معناها أننى أعنى ذلك وأنت أخى معناها أنك أخى أو مثل أخى وأقسم على ذلك . . والآن لا أنت أخى ولا صديقى ولا زميلى ولا حتى جارى . . فأنت هناك . . وأنت هنا . . انظر إليك ولا أراك واتجه إليك ولا أسمعك . . ولا يعنينى أمرك لا كثيرًا ولا قليلاً . . فعندى مشاكلى وعندك أيضًا . . ولا يهمنى كثيرًا ماذا أصابك . أنت فى حالك وأنا فى حالى . . وليس عندى وقت لك ولا عنك . . تغيرت الأشياء والناس والعلاقات . . ومعانى الحياة وطرق النجاح . . والهروب من هذه الحياة ! وإذا دخلت بيتا من البيوت فإنك تجد البيت ساكنا كان أحدًا لا يسكنه . والحقيقة أن فى كل غرفة واحدًا هذا الواحد يقرأ أو يكتب . . أو إنه نائم . . ولكن لا شأن له

بالأخوة فى الغرف الأخرى . . إنهم معا فى بيت واحد وليسوا معا . . وهذه من أهم صفات المجتمع الحديث : الناس كثيرون فى كل مكان ولكن كل واحد وحده . . كأنه لا يشعر بالآخرين . . أو كأنه ينفض عن أعصابه كل الذى له علاقة بوجود الآخرين . . لايريدهم كما إنهم لا يريدونه . ماذا جرى : ماذا طرأ ؟ منذ متى ؟

فكما إن الناس يختلفون فى أشكالهم وألوانهم ولقائهم فهم كذلك فى عاداتهم وتقاليدهم . والذى تراه المرأة الشرقية من الحشمة لا تراه الغربية كذلك . . فالمرأة الشرقية تستر وجهها . . والمرأة الغربية تسفر عنه . والرجال يغطون الرأس احتراما وفى الغرب يرفعون القبعة احتراما .

والهنود يكتفون برفع الكفين معا للتحية وفى الشرق العربى يرون ذلك ترفعا عن التحية . . وفى دول الخليج يقبلون الكتف والصدر والجبهة والأنف وفى بعض قبائل أواسط إفريقيا يبصقون على الوجه .

وعلى الرغم من أننا نعيش جميعا فى القرن العشرين فإن شعوب العالم ليست على نفس الدرجة من التطورين الاجتماعى والصناعى فالمسافة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين القبائل البدائية فى حوض الأمازون أكثر من عشرين قرنا . . والمسافة بين اليابان وبين القبائل البدائية فى جزر المحيط الهادى يمكن حسابها بعشرات القرون . . فالأمريكان والروس قد وصلوا إلى الكواكب الأخرى وفى الوقت نفسه هناك قبائل تعيش على السمك وعلى قطف الثمار من الغابات وعلى تعاويذ الساحر وعفاريت الغابة .

والإنسانية كلها قد مرت بمراحل حتى وصلت إلى ما هى عليه اليوم . فالإنسان الأول يعيش فى الغابات يصيد الحيوانات ويقطف الثمار من الأشجار . . الأشجار لكل الناس والحيوانات التى يصيدها يجب أن يسارع بقتلها وأكلها قبل أن تأكله . . ولذلك فقد كان الإنسان يهاجم

الحيوانات . . فإذا قتلها أكلها بدمهـا فورًا قبل أن تهاجمه الحيوانات وتأكله هو والفـريسة ولابد أن الإنسـان الأول كان يـأكل ويخطف بسرعـة تمامًا كما تفعل الكلاب الضالة الآن . . فهو لا يعرف متى يأكل فى المرة القادمة . . ولم يكن الإنسان فى ذلـك الوقت يحتاج إلا لقوة عضـلاته وبعض الأدوات البدائية التى يقتل بها وكان يعيش فى الكهف .

وقد لاحظ الفيلسوف الألمانى « كنت » أن الطفل لم يكن يبكى فى ذلك الوقـت ولو بكى لأكلتـه الوحـوش . . فقد اعتاد الأبـوان أن يكتما صوت الطفل حتـى لا تهتدى إليـه الوحـوش . . ولكن بعـد أن أحس الإنسـان بالأمـان لم يعد يعبأ كثيرًا بـأن يبكى الطفل أو يصرخ أوتبكـى أمه أو تصرخ عند الـولادة . . فلا خـوف من أن يسمـع أحد صـوتها ، بل إن الإنسـان أصبح يشجع الطفل على البكاء لأن البكاء يقـوى رئته وحباله الصوتية . . ثم إن البكاء يرهق الطفل فيجعله ينـام . . ومن الناحية التربوية يجب ألا نستسلم لبكـاء الطفل كوسيلـة من وسـائل الضغط علينا ليـأكل ويشرب عندما يريد هو لا عندما نـريد نحن ، وبذلك يعتاد على أن يطلب فى أى وقت وعلى أن نجيبه إلى ما يريد .

وفى ذلك الـوقت لم يكـن للمرأة دور كبير فى الحيـاة الاجتماعية ، وإنما الرجـل يتركها وراءه فى الكهف أو تحت الشجـر . . أو فوق الشجر تـرضع طفلها وتدافع عن نفسها حتى يعود لها .

وقد انتقلـت الإنسانيـة من مـرحلة صيـد الحيوانـات وقطف الثمار إلى مرحلة زراعـة الأرض لا نعرف متى حدث ذلك . . ولكـن انتقلنا إلى قطع أشجار الغـابات وتسويـة الأرض وزراعتها . . يـرى بعض العلماء أن المرأة وقد تركها الرجل وراءه قـد صنعت شيئين : البيت وزراعة الأرض . . فهى التى أقامت لنفسها الكوخ والبيت لحمايـة نفسها وطفلها أما الرجل فما يزال فى حالة الصيد والقنص وليست أعمال العنف والمافيا والحروب إلا استمرارًا لصورة الصيد والقتل ولكن بصورة أخرى .

والمرأة التى تركها الرجل وراءه مئات ألوف السنين . . هى التى قطعت الأشجار لكى تفسح مكانا للبيت . . ثم سوت الأرض ونثرت البذور . . والمرأة هى صانعة البيت وحارثة الأرض .

وعندما انتقل الإنسان الصياد إلى الإنسان الفلاح لم يعد فى حاجة إلى أكثر من ذراع قوية وفاس . لا مؤهلات أكثر من ذلك . فالرجل القوى هو المثل الأعلى فى المجتمع الزراعى والإنسان الزراعى كان يبلغ الرجولة دون العشرين فى حاجة إلى شباب آخر يزرع ويحرث ويحصد . . ولذلك تزوج فى سن مبكرة وجاءت الأولاد ليساعدوه فى عمله . .

وإذا كان الخطف والجشع من صفات مجتمع العبيد فإن التعاون من صفات المجتمع الزراعى . فالأسرة هى نواة المجتمع . والأسرة عادةمن أب وزوجة وكثير من الأولاد . ويجب أن يكونوا فى صحة جيدة ليقدروا على الزراعة . . والطفل الزراعى يولد فلاحا ليس فى حاجة إلى علوم أو فنون تؤهله لأن يكون فلاحا . وإنما إلى عضلات ومحراث . . ومن مظاهر الحياة الاجتماعية فى الريف : الأسرة . . العائلة . . العصب . . الدم الواحد . وكل عائلة لها كبير ومن القرية تتكون العائلات أو من العائلة .

وكما إن لكل فلاح أرضا وبيتا فله حرمة أيضًا . والحرمة هى بيته وأولاده . . وهى شرفه وهى العفة . فالإنسان يجب أن يحرص على أرضه التى هى عرضه فالشرف والفضيلة والعفة هى من أهم الحدود والأسوار التى أقامها الإنسان الزراعى لنفسه وحول نفسه .

إننا لانعرف متى انتقلنا من حالة صيد الحيوانات إلى زراعة الأرض وإستئناس الحيوانات لتكون خادمة فى الحقل ثم إننا لم ننتقل من هذه الحالة إلى تلك الحالة بصورة نهائية . . فما يزال الكثيرون يعيشون وكأنهم فى عصر الصيد والقنص . . ونحن عندما نذهب إلى أحد مطاعم بيروت ونطلب «الكبيبة النيئة » أو نذهب إلى أحد المطاعم الأوروبية ونطلب أن تكون

اللحم بدمها فنحن ما نزال فى عصر الصيد . أيام كنا نصيد الحيوانات ونأكلها بدمها . . فلم يكن الإنسان قد اخترع النار . . وحتى بعد أن اخترع النار فإنه بدلا من أن يضع اللحم فوقها فإنه يأكلها نيئة على ضوء النار . والشعب اليابانى يأكل الجمبرى حيا والأسماك نيئة . . وبعض الشعوب الآسيوية والأفريقية تأكل مخ القرود وهو حى جالس تحت منضدة خرج منها رأسه .

ثم يتركونه بعد أن نزعوا مخه باعتبارها وجبة ارستقراطية فادحة الثمن . لقد جربت ذلك فى هونج كونج فى بيت أحد الأغنياء وندمت على ذلك ولا أزال . فالصورة لم تغادر عينى حتى عدلت عن أكل اللحوم نهائيًا منذ ثلاثين عامًا .

وكل الرذائل الآن كانت فضائل قبل ذلك . . فالجشع والطمع والخطف من أهم صفات الإنسان فى عصر الصيد والقنص . . واليوم نراها رذائل والعنف والقسوة التى هى من فضائل الحرب نراها وحشية فى زمن السلم . . ولو رأينا رجلا ينطلق فى الشارع يمسك مدفعًا رشاشًا . . ولم نجد فى الشارع أحدًا لقلنا إنه مجنون . . لو عرفنا أن لصا هاجمه لوجدنا له العذر وقلنا ولكن ما ضرورة المدفع الرشاش ، ولكن إذا عرفنا أنه يطارد أحد جنود الأعداء الذى اعتدى على بيته وأسرته وهدد آخرين لوجدنا فى هذا السلوك شجاعة وبطولة .

ومن أهم معالم البيت فى المجتمع الزراعى الأسوار . . تفصل بين الأرض التى أملكها والتى تملكها أنت . . والأسوار بين بيتى وبيتك والأبواب المغلقة بينى وبينك . . والحرص على استقرار الأسرة . . الزوجة الواحدة أم الخلية . . ملكة الخلية والأولاد كلهم معا فى بيت العائلة .

والمثل الأعلى فى المجتمع الزراعى . . أن كل أسرة لها كبير وهذا الكبير هو مصدر السلطات هو الآمر الناهى هو الذى يقرر ويحكم ويعاقب وهو

الذى يملك والقرية لها كبير والمدينة لها كبير والدولة لها كبير والكون كله له كبير .

وكل عـائلة تكفى نفسها بنفسهـا . . هى التى تزرع وتطحـن وتعجن وتخبز . . هى تحمل وتدافع عن كل أفرادها . . وهى التى تباهى بقوتها بما لديها من الأفراد وما لدى الأفراد من الأرض والأشجار والثمار والحيوانات .

وانتقل المجتمع كله من الزراعة إلى الصناعة . . وتغيرت أساليب الحياة وتغيرت معها العادات والتقاليد والأخلاق والمثل العليا . . فلم تعد الأسرة قـادرة على إطعام نفسهـا أو حمايتها . . وإذا كـانت الأسرة تصنـع أدواتها البدائيـة فقد ظهـرت صناعـات أكبر وأكثر تعقيـدا . ظهرت المصـانع فى أمـاكن أخـرى . . فى قرى أخـرى ومـدن أخرى . . وسـافر إليهـا العمال ينفصلون عن بيت العائلة . . وظهـرت هناك فروق بين الفلاح والعامل . فالعامـل فى حاجة إلى أن يتعلم وبعد أن يتعلم فى حـاجة إلى أن يتدرب . وبعد ذلـك فى حاجة إلى سنـوات للتدريـب واكتساب المهارة . فـإذا كان الفلاح قـادرًا على أن يكون أبـا وزوجا فى العشرين فـإن العامـل محتاج إلى سنوات أطول فى الـدراسة والتدريب ليكون قادرًا على بنـاء الأسرة وكذلك الزوجة العـاملة أيضا . وما دام الأب قد تعلـم فإن أولاده يجب أن يتعلموا أيضًا وهو لا يستطيـع أن ينفق على أولاد كثيرين . ولذلـك يجب أن يكون عنده طفل أو اثنان على الأكثر .

فـابتعد النـاس عن الأرض وعـن بيـت العائلـة . . وانتقلوا إلى جـوار المصانع يعملون فى الدكاكين القذرة والورش الرطبة . . وفى المناجم المظلمة الخانقة . . لقد ذهبوا كأفراد . . كعائلات .

والإنسان الذى اخترع الآلات أصبـح ضعيفا أمامها فهـو قد اخترعها لكى يخفف عن نفسه أعباء العمل اليدوى الشاق البطىء . . فقد أراحته فعلاً ولكن فجأة وجد أن هذه الآلات فى حـاجة إلى هذا العدد الكبير من

العمال . . إنها تعمل على إنقاص عدد الأيدى العاملة . . وعلى أن تختار أحسن العمال وأكثرهم كفاءة وعلما وتجربة .

هذه الآلة قد أخرت النضج العقلى عند العمال وأخرت أيضًا النضج الاقتصادى .

فالعامل لا ينمو اقتصاديا إلا بعد الدراسة والتدريب . فإذا نضج اقتصاديًا بدأ يفكر فى العمل وبناء الأسرة . فجاء الزواج متأخرًا . ثم إن الرجل الذى كان يتزوج لتقوم زوجته بكثير من الأعمال فى البيت لم يعد فى حاجة إلى كل ما تعمله المرأة فى البيت . . فكل الذى كانت تصنعه موجود الآن فى الدكاكين دون حاجة إلى زواج .

لقد انحسر دور المرأة تمامًا .

فالرجل لا يستطيع أن يتزوج مبكرًا ولا المرأة .

وكان الرجل فى المجتمع الزراعى يفزع إذا عرف أن فتاة كانت مخطوبة لرجل آخر . . أو حتى تزوجته ثم انفصلت عنه . . أما فى المجتمع الصناعى فينظر إلى المرأة التى أغلقت على نفسها الباب والشباك على أنها امرأة جاهلة عبيطة ساذجة . . ويرى أن المرأة التى يريدها زوجة يجب أن تكون عرفت وسمعت وقرأت . . أى على دراية بالدنيا . . لتكون أكثر حرصا على أسرتها وزوجها وأولادها . وتكون قادرة على حماية نفسها وتكون عونا لزوجها على مصاعب الحياة .

وإذا كانت الأسوار العالية والأبواب من رموز الحياة الزراعية فإن الأسوار المغنطة والفواصل الزجاجية والأندية والشواطئ من علامات الانفتاح الصناعى والنضج العقلى والحرية الاجتماعية أيضًا .

وفى المجتمع الزراعى كانت الأسرة هى وحدة المجتمع وكانت مصدر العادات والتقاليد وحامية لها أيضًا . . أما فى العصر الصناعى فقد تقلص دور الأسرة . كما تقلصت العادات والتقاليد .

التقاليد الاجتماعية والأخلاقية . . أما العادات الحديثة فليست فى حاجة إلى أسرة كأن يشرب الإنسان من كوب أو يأكل بالملعقة أو يجلس إلى مائدة . ويشرب كل واحد من كوب وكل واحد يأكل من طبق خاص لا من طبق واحد . . وقد سجل ذلك كله فى كتابه الشهير « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » . وقد نقل كل هذه العادات إلى بيته . . ولكن لم ينقل الحضارة الفرنسية بتقاليدها الحديثة فى البيت والشارع والمصنع . فليس اسهل من نقل العادات وليس أصعب من إرساء التقاليد .

انتهى دور الأسرة وقامت المؤسسات الاقتصادية والصناعية بدور الأسرة فى المجتمع الزراعى . . فأصبح الولاء للمؤسسة والإخلاص للمؤسسة ورئيس المؤسسة هو كبير العائلة . وأروع صورة لذلك فى اليابان . فالمؤسسة هى بيت العائلة . وكما إن أحدا لا يخرج على العائلة أو يتنصل منها .. فكذلك العامل اليابانى يعيش للمؤسسة هى التى تنفق عليه وهى التى تختار له الزوجة وتعلم له الأولاد ، ولوائح المؤسسة هى القانون الأخلاقى . ولم يحدث قط أن خرج واحد يابانى من مؤسسة سونى مثلا ليعمل فى مؤسسة ناشيونال ـ لم يحدث أبدًا . . لا هو يفعل وإذا فعل فإن المؤسسة الأخرى لا تقبله لاجئا إليها . . وهذا هو أحد أسرار الثروة اليابانية . . حياته ومماته ارتبطا نهائيًا بالمؤسسة التى يعمل لها وبها .

وبعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ذهب الرجال للحرب . . ولم يعد منهم مائة مليون فكانت المرأة تعمل بدلا منهم فى الحقول والمصانع . فلما انتهت الحرب كانت المرأة قد اتخذت لها مكانـًا واكتسبت حقوقًا فكان صعبا ألا تكون مساوية للرجل .

وتساوت بالرجل فى كل مكان ومجال . . ولم يعد الرجل هو صاحب القرار صانع القانون وأول من يعتدى عليه . . فالمرأة شريكة له أيضًا .

ولكن كل الاضطرابات الاجتماعية . والأخلاقية والعقلية قد أصابت الإنسان بعد الحرب . فقد اعتاد الرجال على العنف والدم والنار فى الحرب . . ولذلك فهم أيضًا يلجئون إلى العنف فيما بعد الحرب . . وراح الرجال الذين بهدلتهم الحرب فى كل الجبهات برا وبحرا وجوا يحاولون أن يعوضوا الذى فات فى ممارسة العنف والقتل والسطو والتحلل من كل القيود . وإذا كان الزواج أيام الحرب فإن الطلاق ينتشر أيام السلام .

فالخوف من الموت يدفع الناس إلى الزواج ليكون لهم أولاد . . والاطمئنان إلى السلام يغرى الناس بأن يتمردوا على القيود ويهربوا من البيت والزوجة والأولاد . . فلم تعد الأسرة أو العائلة هى الهدف والوسيلة وإنما كل واحد يفكر وحده ولوحده . . فالفرد هو وحدة المجتمع . . والمجتمع أفراد أعضاء فى نقابة أو فى مؤسسة أو مصنع . وكل واحد له رقم خاص كالسيارات . . ولا جامع بينهم إلا المصنع . . إلا لوائح العمل والعقاب والثواب .

شىء واحد أدهشنى فى كل المعارك فى لبنان . . شىء لم أجد له نظيرًا إلا فى الأساطير الإغريقية . . وهو دليل على حيوية الشعب اللبنانى وعلى إرادة الحياة وعلى تحدى الفناء . . ففى كل مرة تقع الغارات تتحطم الواجهات الزجاجية للمحلات . . فإنهم فى اليوم التالى يصنعون واجهات زجاجية جديدة . . تتحطم هذه الواجهات الزجاجية فيضعون واجهات أخرى . . أما اللغز فهو : أنهم يعرفون أن الزجاج لا يناسب الشظايا ولكنهم مصرون على مواجهة الشظايا بالزجاج ،على مواجهة الموت بكل أبهة الحياة . . يضعون الزجاج وهم يعلمون مقدما أنه قد يبقى يوما أو أسبوعا ولكنهم مصرون على مواجهة الشظايا بالزجاج على مواجهة الموت بالحياة على مواجهة النهاية اليومية بالبداية اليومية .

إنها صيغة لبنانية للأسطورة الإغريقية القديمة : أسطورة سيزيف الذى

حكم عليه بأن يـدفع أمامه حجرًا ضخمًا إلى أعلى الجبل حتـى إذا بلغ قمة الجبل انحدر الحجر إلى السفح ليرفعه إلى القمة إلى السفح إلى القمة . . إلى الأبد . . إن سيزيف يعلم أن الحجر مهما ارتفع فلكى يسقط . . كان لديه أمل فى أن تتـوقف هذه العملية التـى لم يعد لها معنى ولم تعـد لها نهاية . . يدفع الحجـر كأنه يجد لذة فى ذلـك وبشعوره بسخافة الـذى يعمله إلا أنه مصر أيضًا على أن يؤدى السخـافة بلذة على أن يقوم بالعبث وكـأنه يقصد ذلك . .

ولابـد أن الشعب اللبنـانى يتحـدى الشظـايا العسكـرية والاجتماعيـة والدينية بواجهات أكثر شفافية وصـلابة من الزجاج . . فإلى متى نحن لا نعـرف إن كانـت حيرتنـا عقلية فـإن الأجيال التـاليـة سوف تكـون حيرتها اجتماعية أخلاقية عسكرية سياسية زراعية صناعية . .

إن الشاعر إيليـا أبو ماضى رجل طيـب فلاح لبنانى هاجـر إلى أمريكا وبقى فلاحًـا . . لا فلاحًا أمريكيا يـركب التراكتورات ولكنه فـلاح لبنانى يـزرع شجرة أرز ويجلـس فى ظلهـا يتغنـى ويؤهـل نفسـه لـراحة النفـوس الشقية . . ومن الذى ليس شقيًا ياسيدى . .

فـالـذى يحارب شقـى والذى يحاربنـا أكثـر شقـاء . . والعـذاب على الجانبين . وحتى الآن لا نعرف متى تنتهى صنـاعة الزجاج فى لبنان . . أو هل يفلحون فى تصدير فائض إنتاجهم إلى بقية البلاد العربية .

(٢)
ماتت الدنيا

حاولت أن أتسكع فى شوارع أثينا كما كان يفعل أستاذنا العظيم سقراط . . كان يمشى حافيا عارى الصدر يستوقف الشباب ويسألهم . . ويحرجهم ويكشفهم ويفضح جهلهم . . وكان يرى أن الإنسان لديه كل المعلومات . . وهذه المعلومات نائمة فى دماغه . . ولابد أن تدق عقول الشباب لتوقظ المعلومات النائمة . . فإذا قال له شاب : صباح الخير يا أستاذ .

قال له سقراط : فما معنى الخير وما الذى تقصده بكلمة أستاذ ؟

فهو لا يستخدم من الكلمات إلا التى يعرف معناها تماما . . أو يحاول ذلك . . ولابد أن تكون للكلمات قيمة العملات المعروفة المحددة . . فالدولار معروف عندك وعندى كم سنتيما .

وعلى هذا الأساس من المعلومات المؤكدة يكون التعاون والتكامل . . وكذلك المصطلحات الفلسفية .

واختار الفيلسوف العظيم سقراط أصعب ما فى الفلسفة : أن يعرف

معانـى الكلمات لأنه لا يـريد إلا وضـوح الفكر . . والكلمات هـى أوعية الفكر وأداة الاتصـال والوصول . . فـالكلمات جسور المعانـى . . واللغة هـى وسيلة الاتصـال بيننا . . وكما إن وسـائل المواصـلات مختلفة فتكـون الكلمات أيضًا . . تكون حمارًا أو حصانًا أو سيارة أو طيارة أو إشارة .

وقـد تطـورت وسـائل المواصـلات . . مـن عصر الإبـل إلى عصر البرقيات .

ولم أفلح فى أن اتصعلك فى شوارع أثينا . . فالعـاصمة اليونانية تغيرت وتقاطعت شوارعها وازدحمت بالناس وتقابلت بالسيارات . . والتقت فيها الضـوضاء والأضـواء . . فـأنت لا تستطيـع أن تكـون « سقراط » دقيقـة واحـدة . . فقـط عليـك أن تخلـع نعليـك وأن تعـرى صـدرك فى شهـور الصيـف . . وإذا عدت إلى البيـت ، وكنت نسيـت أن لك زوجـة وأولادًا ونسيت أن تعطـى للسيدة حـرمك درهما واحدًا ، فـلا لوم عليهـا إذا أتت بطشـت الغسيل وألقـت على رأسك بـالماء القـذر كما كانـت تفعل زوجـة سقراط ذلـك العبقرى الصعلـوك . . وكان العبقـرى يقول ضـاحكًا . إن زوجتى كالسماء . . ترعد وتبرق ثـم تمطر بعد ذلك !

وأفكارها ماء قذر يليق بلسان الفيلسوف العظيم !

وكان سقـراط ومن بعده تلميذه ارسطـو يفكران أثناء المشـى . . وكان أرسطـو إذا جلـس دقيقـة فـإنـه بسرعـة ينهـض ويتحـرك ويـدور حـول تلامذته . . ثـم يدفعهم إلى أن يمشوا حوله . . بعضهـم يكتب وبعضهم يعتمد على ذاكرته . . ولكنه كان يمشى ويهز رأسه . . تماما كما تهز شجرة تحملت بـالثمار ، فتتساقـط أفكاره هنا وهنـاك . . وأحيانـا أفكاره كـانت كالثمار تسقط ناضجة ، وأحيانًا كانت أفكاره مثل العصافير تطير ثم تعود إلى نفس الشجرة بعد أن استدرجت عصافير أخرى .

وكان أستاذنـا عباس العقاد . . يحب المشى . . ولكنـه لم يكن يمشى

مع أحـد . . وإنما يفضل أن يكون وحـده . . وأذكر أننى استـأذنته فى أن أرافقه بعض الوقت . . فوافق . . وكـان هو الذى يتكلم عادة . . وهو ما أتوقعه . . ولم يكن صوت العقاد قـويا ولا نبراته واضحة . . فكان لابد أن يتوقف . . وأتوقف ويتحدث . . ثم يستأنف المشى . . فإذا عرضت عليه أن يجلس كان يرفض . . وفى إحدى المرات اخترت طريقا خاليا من الناس والسيارات . . ولم يمض وقت طويل حتـى قرر أن يعود إلى البيت . . أما السبب فهو أن يمشـى نصف ساعة ويعـود فى نصف الساعة . . فهـو قد حدد ساعة واحدة للمشى . . سواء كـان وحده أو مع آخرين . . فالعقاد لم يكـن يجد متعة فى التفكير أثنـاء السير . . وإنما كـان يفضل أن يمشـى صامتا . . ولذلك لم يشجع أحدًا على أن يرافقه . . أو يتشجع أحد على أن يكون ظلا صـامتا . . والعقاد عندما يمشـى يكون متجهما . . فتحتار إن كان وجهـه صورة لأفكاره ، أو كان ذلـك هو رد الفعل الطبيعى للـدوشة التى حوله .

وأذكر أن أديبـا لبنانيـا وجده يمشى فى الشـارع . فصافحـه وبمنتهى حســن النية رافـق الأستـاذ العقاد بعـض الوقـت فلـم يجده ينطق بكلمـة واحدة . . فتركه دون أن يلفت نظره إلى ذلك . .

ولما سألناه قال : أعوذ بالله . . إن الرجـل كان فى حاجة إلى من يعطيه مسدسا لكى يطلقه على رأسى . . فقد اقتحمت عليه خلوته !

والحقيقة غير ذلـك . . فالعقـاد هكذا وحده ومـع الآخريـن . . فهو عندمـا يكون وحده ، لا يطيـق عذولا . . وكـل إنسان يدخـل بين العقاد ونفسه فهو عذول يستحق من العقاد كل إهمال !

وكان تـوفيق الحكيم يحب أن يمشـى وأن يتحدث أثناء المشـى . وكان يتوقف من حين إلى حين . . ولكن وجودك مـع توفيق الحكيم لا يعنى أنه يشعر بك تمامـا . . وإنما هو يرى فى وجودك معـه وقاية له حتـى لا يصفه

أحد بالجنون . . فهو معك يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع . . وكثيراً ما كنا نعبر الشارع فيسبقنى إلى الطرف الآخر من الشارع وتجىء السيارات تفصل بيننا . . وكنت أنظر إليه فأجده ما يزال يتحدث وكأننى معه . . ويمضى يتحدث . . وقد يتنبه إلى أن أحدًا ليس معه فيتوقف وينتظر ويستأنف الكلام بنفس الحماس !

سألنى طه حسين : قل لى كيف تجد أخانا توفيق الحكيم ؟

قلت : إنه بخير يا أستاذ .

قال : عندما تسيران معا على النيل ؟

قلت : يكون فى لياقته الفكرية يقول ويقول ونضحك .

قال طه حسين : عجيب أمر توفيق . . فقد كنا فى باريس لا نحب المشى وكان يؤكد لى أن المشى تبديد للطاقة وأن الأفكار كالبذور يجب أن تستقر طويلاً فى التربة التى ترسخ جذورها . . أليس عجيبا توفيق ؟ . عندما كانت عنده طاقة ، كان يحب السكون .

ولما نقصت الطاقة راح يبدد ما تبقى لديه فى المشى !

أذكر أننى اقترحت على المرحوم يوسف السباعى أن يجعل لنا طريقا صاعدًا إلى المقطم . . وهذا الطريق نتمشى فيه . . ونحاول أن نستدرج إليه الشعراء والأدباء . . ما دامت القاهرة قد ضاقت بنا وضاقت عنا . .

وكان يضحك ويقول : تفتكر كم تحتاج من رجال الأمن . . فهؤلاء الشعراء والأدباء لا يطيقون بعضهم البعض . . فهى مذبحة . . وسوف يقول الشيوعيون إننى دعوت إلى هذا الطريق لتصفيتهم جسديًا . . وسوف يقول آخرون إنى كوزير للإعلام والثقافة أريد القضاء على الإعلام والثقافة بدفع الأدباء إلى الانتحار من المقطم !

وفى كثير من المدن الألمانية تجد شارعا صاعدا إلى الجبل اسمه « شارع

الفيلسوف » وألمانيـا بها عشرات العباقـرة نصفهم مـن الفلاسفـة والنصف الآخر من الموسيقيين . . ففى مدينة هيدلبرج الجميلة يوجد بها طريق اسمه « ممشى الفيلسـوف » . . أما الفيلسـوف فهو الألمانـى هيجل . . الطـريق جميل . . صاعد إلى فوق . . ويتثنـى وينحنى ولابد . . أن الفيلسوف كان فى تمام الصحة والعافيـة وإلا كيف يصعد هذا الطريق الطـويل . . أو إنه كان يصعده على مهل . . يستريح ويتأمـل بعض الوقت . أو إن الطريق كـان أقصر من ذلـك . . ولكنهم أطـالـوه . . أو إن الطريـق كان هكـذا طويلاً ولكن المعـانى كانت تحمل الفيلسوف على أكتافهـا فلم يكن يشعر بالوقت !

وفى مدينة انسبورك بالنمسا طريق اسمه « طريق جيته » . . وجيته هو أمير الشعراء الألمان . . ويقال إنه فى يوم من الأيـام كان هذا الشاعر الكبير والموسيقار الفذ بيتهوفن يسيران معا . . فقال الشـاعر للموسيقار . . تريد أن تعرف أينا أشهر فى هذا البلد . . فلما اقتربـا من أحد المواطنين نزع قبعته وانحنى فسأله جيته مشيرا إلى بيتهوفن :

هل تعرف من هذا ؟ قال : إنه الموسيقار العظيم بيتهوفن !

وسأله بيتهوفن مشيرًا إلى الشاعر : ومن تظن هذا السيد العظيم ؟

فقال الرجل : إنه سيادة العمدة ! !

وكان ذلك آخـر عهد الشاعر بهذا الممشـى الجبلى . . فإنه لا يحب إذا سار فيـه أن ينظر النـاس إلى طولـه وعرضـه على أنه العمـدة وليس أعظـم شعراء زمانه !

وكان الأديب الإيطالى البرتومورافيـا يتمنى لو كان يقدر على المشى . . فهو أعـرج لأنه أصيب بـالشلل وهو طفل . . ولـذلك تعلم الإنجليـزية والألمانية والفرنسيـة والكتابة على الآلة وهو فى السريـر . . ولكنه كان يحب السفر والترحـال أما المشـى فهو لا يستطيعـه . . ولذلـك كان يفضـل أن

يركب الحنطور البطىء الذى يوهمه بـأنه يمشى على قدميه . . وفى إحدى روايات مـورافيا تجد البطل يقول : فقـدت الإنسانية أجمل ملـذاتها لأننا لم نعـد نمشى على أقـدامنا . . فـالمشـى يجعلك تحس بـالأرض وترى الـزرع والحيوان عـن قرب . . تراه وتلمسه . . وتتـوقف عنده وتتأمـل . . ولكن الجرى والطيران يجعلانك ترى الدنيـا مساحات خضراء أو صفراء أو حمراء تراها لوحة بعيدة . .

ولا ترى نفسـك واحدًا بينها . . فـالمشى يجعلك فـردًا فى أسرة الألوان والموسيقى والحياة ، والطيران يجعلك ترى الدنيا وقد ماتت . . فكل شىء يمضى بسرعة . . فلا تكاد تراه أمـامك حتى ينطلق بسرعة الطائرة وراءك فكل شىء مات ، قبل أن تشعر به !

(٣)
اسم هذا الزمان

أناس يقولون إنه زمان : ياجارى أنت فى دارك وأنا فى دارى !

يعنى أنت فى حالك فاتركنى فى حالى . . فلا أريد ، ولا أنت . . وليس من الضرورى أن يتصادق الجيران . وإنما الأفضل ألا تكون صداقة . . فهى عاطفة ليست حيوية . . بل هى ضارة أحيانًا !

وقالوا : نحن فى زمان الإنسان الصغير . .

والإنسان الصغير هو بلايين الناس . . ألوف ملايين رجل الشارع . . الجماهير الصامتة . . أو الجماهير العاملة . . ففى هذا الزمان ارتفع وزن الإنسان الصغير . . فلم يعد صغيرًا . . وإنما الصغير إلى الصغير كبير . . ذرة رمل إلى ألف ألف مليون ذرة يكون بها جبل . . أو ساحل . .

فظهرت للإنسان الصغير فلسفات سياسية واقتصادية يطالب بحقه المسلوب فى أن يعيش وأن يكون لعيشته معنى وهدف . ويكون هو عند دفة الإدارة والإرادة . .

نحن فى زمن الإنسان الصغير الذى لم يعد صغيرًا !

وقالوا : نحن فى زمن الشىء الصغير

فقد أفلح العلماء فى أن يفتتوا المادة إلى ذرات . . وأن يدخلوا الذرة فتنطلق منها طاقة هائلة قادرة على التدمير . . فنحن فى عصر الشىء الصغير . . فى عصر الذرة . . القنبلة الذرية . . ذرة اليورانيوم وذرة الهيدروجين . .

فكما إن الإنسان الصغير لم يعد صغيرًا فالشىء الصغير ليس صغيرًا . ولو نظرت إلى ذرة تحت الميكروسكوب لوجدت ميادين فسيحة فيها حركة هائلة . . قوى هائلة . . إذا انطلقت ذرة على ذرة على بلايين الذرات كانت ملايين القنابل شديدة الانفجار . . نجاساكى وهيروشيما وماذا أصابها بسبب هذه الأشياء الصغيرة التى انطلقت منها السنة جهنم تفتك بمئات الألوف من الأحياء وملايين الذين كانوا بعيدًا عن المدينتين . وبالأرض وبالأشجار . . والطيور . . وسوف تظل آثار القنابل الذرية مئات السنين . . مرضا متربصًا بأهل اليابان حتى الموت .

وقالوا : نحن فى زمان اللاشعور . .

فليس صحيحا أن كل حياتنا واعية عاقلة . . وإنما هناك فى أعماق الإنسان مشاكل وعقد . . وهموم ومخاوف . . وهى جميعا ولدت فى طفولتنا ولم تمت . . وإنما بقيت هناك فى أعماقنا تنطلق عند الغضب وعند الخوف . . فكأن صدورنا أقفاص تعيش فيها حيوانات تنتظر فرصة انفتاح باب القفص . . أو إذا لم ينفتح فإنها تحطمه وتخرج . . فكأن صدورنا هى الكهف القديم . . وليس فى هذا الكهف إلا حيوانات مفترسة . . هذه الحيوانات هى نحن كما كنا من عشرات الألوف من السنين .

اذهب إلى طبيب نفسى واسمع ماذا يقول ؟ . . تقول له : عندى صداع دائم يادكتور . . عندك علاج ؟

يشير الطبيب إلى كرسى طويل ويطلب إليك أن تتمدد . . وتكون على راحتك . . وتقول كل ما يخطر على بالك . . وخاصة ما حدث لك فى طفولتك . . وفجأة تحس بأنك صغير وأنك تبكى . . وأن والدتك ضربتك على رأسك وحبستك فى غرفة مظلمة . . وأنت تصرخ . . وبعد أن تصرخ وتبكى يقول لك الطبيب : قم الآن .

ويذهب الصداع . . فقد كانت مخاوفك مثل ثعبان وضعت عليه قدمك ورفعت قدمك فهرب الثعبان . . أو تكون همومك مثل أسماك أخرجتها من ماء الماضى فماتت .

فكل شىء فى ماضيك موجود فى صدرك . . فى عقلك . . فى خيالك . . فى أحلامك . . فلا شىء يموت . .

وأصبح الإنسان كالشجرة فروعها ظاهرة وجذورها الطويلة الملتوية متشعبة تحت الأرض . . لا تراها ولكنها هناك .

وقالوا : نحن فى زمان الحديد والنار والدم !

فالإنسان حيوان مقاتل . . ولم تنته الحروب فى أى وقت . . فى زماننا هذا ٢٧ حربا صغيرة دائرة . . إنها صغيرة ولكنها موجودة . . ولم يحدث أن اختفت الحروب فى التاريخ إلا فترات ضئيلة جدًا . ولولا الحروب ما تطور العلم والطب والمواصلات .

فمن أين تجىء الحروب ؟

تجىء من الخوف . أنا أخافك وأنت تخافنى . . فنستعد نحن الاثنين والخوف يدفعنى إلى الحقد . . والحقد يدفعنى إلى الغضب . والغضب يجرنى إلى العنف . والعنف هو الأب الشرعى لكل الحروب .

وما دمنا جميعا نحتوى على مشاعر قوية فالحروب هى هذه المشاعر

وقد وضعــت فى يديها الحديـد والنار . . أما الموت فيجـىء بعد ذلـك بلا مجهود !

وقالوا : نحن فى زمن الملل . .

فالحيـاة أصبحت رتيبـة . . الغد يجىء بعد اليـوم . . واليوم جـاء بعد الأمس . . وكل شىء لا تغير فيه ولا تبديل . ولذلك يشعر الناس بالملل . والملـل يؤدى إلى القـرف . . يقرف الإنسـان من نفسـه ومن غيره . وهـذا القرف يجعلنا نبحث عن الإثارة . . والإثارة فى الطعام الحريف أو الساخن أو المثلج أو فى العنف . . فـالعنف هو الحادث الذى يهز المجتمـع الراكد والنفس البليـدة فليس صحيحًـا أننا نرفـض العنف ، وإنما نطلبـه فى كرة القدم. . فى المصارعة . . فى أفلام العنف . . وأفلام الحرب .

بل إننا نذهب لنتفرج على أفلام العفاريت . . أى أننا نتزاحم من أجل أن نشترى الخوف ونشترى العنف لأنه ينقذنا من الملل والقرف .

والمخـدرات جاءت لإنقـاذ الإنسان مـن الملـل . . من الـواقع البليـد فتخلق له عالما خرافيا ثم يعتاد على ذلك ويدمن المخدرات !

وقالوا : نحن فى زمان الإنسان الحزين . .

وهو حزين لأنه وحيد . . ورغم أن سكان الأرض ستة آلاف مليون إلا أنهم لا يعيشون معا . . لهم وجود جغرافى وليس لهم وجود نفسى . . تماما كما تـدخـل مطعما أو سينما . . النـاس معـك ولكنـك لسـت مـع واحـد منهم . . فأنت وحدك . . وهذه الـوحدة تجعلك تمد يدك إلى الناس لكى تكون معهـم . . ولكنك فى نفس الوقـت لا تريد أن يلتحم النـاس بك . فأنـت تقترب ولكن ليس كثيرًا . . فـأنت تخاف من النـاس على نفسك . ولكن لابد أن تعيش مع الناس وبالناس وللناس وضد الناس .

فالنـاس هم مثـل الحوت الذى ابتلع سيـدنا يـونس عليـه السلام . . ولكن لأن يونس نبى فإن الحوت لم يأكله . . وإنما كان الحوت مثل غواصة نقلته من البحر إلى الشاطـئ سالما آمنا . . أما الحوت البشرى . . الجماهير والمجتمع والأجهزة الحكوميـة والتجارية والاقتصادية ـ فهـى تبلع الإنسان وتقتلع أظـافره وأنيابه . . وهـذه هى شروط القبول . . وهـى شروط الحياة معا !

ولكثرة المشاكل فى زماننا قالوا : هذا زمان الأزمات . .

أى المصائب الكبرى التـى ليس لها حل سريع . . وإنما هـى مصائب طويلـة الأجل متعددة الأطراف . . والأزمـات كالأمراض حقيقـة واقعة . لابد منها ولا حيلة لنـا فيها ـ نعيش بها ونعيش عليها . . ومـا دام وجودها ضروريا فنحـن لا نعمل على اختفائهـا . وإنما فقط على إدارتها وإبعـادها عنا . . مثل حريق كبير . . ننفض شظاياه عن ملابسنا . . ولكن يبقى كما هـو . . مثل البراكين . . لا طـاقة لنـا على إطفائهـا . . وإنما فقط نبتعـد عنها . . إنها مثل العواصف . . نتقيها ولكن لا نغلبها . .

ولـذلك ابتـدع الإنسان علـم « إدارة الأزمات » أى علـم الوقـاية مـن الأزمات وطرق علاجها . . تمامـا كالأمراض والزلازل والبراكين والأوبئة . أو إننـا فى زمـان الهموم . . هموم الفـرد وهموم الأسرة وهموم المجتمـع وهموم الإنسانية .

والهم شىء ثقيل تحسـه ولا تراه وإذا رأيته كان ولـدا أو زوجة . وإليك هذه المعانى : تكفى هموم اليوم أما الغد فله هموم جديدة !

* * *

من مزايا الثقافة . . إنها تجعلنا نـرى همومنا أوضح ولكن مـع تعميق عجزنا عن علاجها .

والعقول . . الالكترونيـة قد أراحـت عقولنـا فما أحـوجنا إلى أجهـزة الكترونية تحمل عنا همومنا أيضًا !

* * *

لا تأخذ « الغد » معك إلى فراشك !

* * *

الناس فى قلق على مستقبلهم قبل أن يستعدوا لذلك !

* * *

لا يعرف الهم من مدد رجليه على قدر لحافه !

* * *

المتفائل هو الذى ينظر باستخفاف إلى هموم الآخرين !

* * *

« اليوم » هو « الغد » الذى كنت مهموما به «بالأمس » !

* * *

الفلوس هم إذا كانت عندك وهم أكبر إذ كانت عند غيرك !

* * *

المواطن العادى قلق على مـا تنفقه الدولة وما تنفقه الـزوجة ، ولكنه لا يخاف أن ينتقد الدولة !

* * *

هناك طريقة مضمونة لكى تجعـل أى إنسان أكثر هما وغما قل له يكون كذلك !

* * *

القلق لا يغير الماضى ولكنه يفسد الحاضر !

لا تقلق ـ أفضل أن تقولها هكذا : لا تقلق على غيرك !

* * *

القلق هو الفائدة المستحقة على المتاعب قبل أن يحين موعد سدادها !

* * *

من الحماقة أن تقلق على أحد لا يمكن التحكم فيه ـ زوجتك مثلا !

* * *

بعض الناس فى قلق على نهاية العالم ـ أكثرهم على نهاية الشهر !

* * *

أما لماذا الهموم تقتل الناس أكثر من العمل الشاق فلأنهم يقلقون أكثر مما يعملون !

* * *

رأيت فى الجبال البركانية بالقرب من مدينة مانيلا بالفلبين أن الناس يجلسون فى فوهة البراكين الخامدة . . وكانت هذه الفوهات ترتجف تحتنا ولم نكن نخاف لقد اعتادوا عليها .

ورأيت الأرض أكثر خصوبة والناس أكثر حيوية فى مدينتى نجاساكى وهيروشيما اللتين ضربتا بالقنابل الذرية .

سألت : ألا تخافون . . قالوا : لقد كان ذلك فى الماضى . . ونحن أبناء اليوم ولابد أن نعمل . . وحتى لو كنا مرضى فلماذا نعيش كأننا موتى مع أننا أحياء . . لقد كانت الهموم الذرية فى ماضينا . ذهب الماضى ونحن مشغولون بهموم اليوم والغد .

وعندما ذهبت إلى مدينة بومبيى بإيطاليا لأتفرج على بركان فيزوف وجدت الأرض ما تزال ترتجف والماء يغلى من تحتها وعلى وجهها . . وقد أقامت الشركات السياحية بيوتا على الأرض البركانية . . وركبوا أجهزة

لرصد الهزات الأرضية ليعرفوا متى يعاود البركان نشاطه . . لقد اعتادوا على رعشة الأرض وقليل من الموت . . وكان ذلك نوعا من وضع الشطة والملح على المياه حتى لا تكون « مائعة » لا طعم لها حتـى لو كان هذا الطعم هو الزلازل والبراكين .

وفى بيروت على الرغم من القنابـل اليومية . . فإن تجار بيروت مصرون على تجديد الـواجهات الـزجاجية يضعـونها وتتحطم ثـم يجددونها فى اليوم التالى . . وتتحطـم ثم يجددونها . . لقـد اعتادوا على الـدمار ، ولكنهـم اعتادوا على أن يتفـوقوا عليه فهم فى مـواجهة الموت يؤكـدون إصرارهم على الحياة . . فهم بذلك يتعالون على القلق ويتحدون الموت .

وفى أساطير الإغـريق نجد ذلـك الفتى سيـزيف الذى حكمـت عليه الآلهة بأن يدفع حجرًا أمامه إلى أعلى الجبل حتى إذا بلغ القمة سبقه الحجر إلى الانحدار فعاد يرفعه إلى الأبد ومعنى ذلـك أن سيزيف يعلم أنه لا حل لهذه المأساة . . ولكنـه يتصرف كأن هنـاك حلا . . وهـو بذلـك يتحدى سخافة القـرار الذى أصدرته آلهة الإغـريق . وهو يغيظ آلهة الإغـريق بألا يشعر بالملل . . ويؤكد أنه وجد فى هـذه السخافة نوعا من المتعة . . هذه المتعة هى انتصار على الملل !

وأسماء أخرى لهذا الزمان !

(٤)
أنت .. واحد من هؤلاء!

النـاس معادن : حـديد ورصـاص وذهـب . . ندخـل النار ونـذوب ونلتوى ونتوهج ونضىء !

* * *

ونحن ماء يجرى ، وتراب يطير ، وهواء ينتشر . .

وفى كل مرة يدور حوار بينى وبين نفسـى ، أحس أن واحدًا قد زاحمنى ثوبى . . فأنزع هذا الثوب لعل هذا الواحد أن يقع . .

وافـأجا بـأن الثوب الـذى لا أستطيـع أن أخلعه هـو جلدى . . هـو سجنى الانفرادى .

وإننى وأعـدى الأعداء وأصـدق الأصدقـاء نعيش تحت جلـد واحد !
بعض الناس رأى هذا الجلـد من بعيد . . فبعض الذين يصـابون بالإغماء فى غرف الإنعـاش فى المستشفيات يعانـون من « لحظة مـوت » ، فتنفصل روحه عن جسده ، ويرى جسده من بعيد ، من سقف الغرفة . . تمامًا كما تلقى بثـوبك على الأرض ، عليهـا . . ثم تنظـر إليه ـــ قليلون استطـاعوا ذلك !

ولكننا جميعًا لا نملك هذه المقدرة الخاصة ، أو لا نحظى بهذه الفرصة النادرة : نرى أنفسنا وقد تحررنا من قيود الثوب .

وربما كان الشعور بالراحة والانسجام عند الموت . هو أن الإنسان تخفف من أثقال الثوب . . ومن عروقه وأعصابه . . فهذا اللحم والشحم والعظم والدم يشبه ملابس فرسان العصور الوسطى . . إنها ملابس ثقيلة ولأننا اعتدنا عليها ، فإننا لا نشعر بها . . هل تعرف متى تشعر بأن جسمك ثقيل . . عندما ينغرس أظفرك فى لحم إحدى أصابع قدميك . . هنا يصبح جسمك كله مرتكزًا على إصبعك ـ هنا تجد نفسك ثقيلا . . برميلاً . . جبلا وقف على إصبع واحدة ، أو وقف على أظفر على شكل إبرة مغروسة فى لحمك !

* * *

كأننا طيور : حمام عندما نولد . . بلابل عندما نكبر . . نسور عندما نحكم . . هدهد عندما نتكلم . . بومة عندما نحقد . . ديك بين عشرات الدجاج عندما نتباهى ، ولكننا غربان عندما نودع هذه الحياة !

* * *

كان لى صديق يحب مداعبة زوجته وحماته . أما مداعبته لزوجته فقد كانت ثقيلة . لأنك من الصعب أن تكون لطيفًا ظريفًا عند زوجتك . . فالذى يمثل على مسرح أمام متفرج واحد مدى الحياة من المستحيل أن يكون مسليًا !

ولذلك فقد كان يداعب حماته بقسوة . فقد أصدر كتابًا عن المرأة . وطلب منى أن أساعده فى كتابة عبارة إهداء إلى حماته .

فاقترحت هذه العبارة : إلى حماتى وحيوانات أخرى ، أهدى هذا الكتاب !

ولم يعجبه الإهداء . فهو يرى أن حماته كأنها الحيوانات الأخرى .
وماتت حماته ، وكان يحبها فاقترح أن أساعده فى كتابة إهداء لها .
فاقترحت هذه العبارة . . مكتوب على قبرها : هى تنام فى هدوء . وأنا أيضًا !

* * *

وفى بعض الأحيان أجـدنى فى حالة شجار مع نفسـى ، ولا أعرف من الذى ينتصر فى النهاية . .

مثلاً . أقول لنفسى : يا أخى ابتلع حبة منومة لكى تنهض مستريحا فى الصباح .

وأرد : ولكن لا أريد أن اعتاد على هذا النوم الكيميائى . . أريد أن أنام لأن جسمى فى حاجة إلى الراحة . . أريـد من جسمى أن يفرض النوم على نفسه .

ـ فإذا لم يأت النوم ؟

ـ أحاول غدًا .

ـ وإذا لم يأت غدًا .

ـ أحاول بعد غد . .

ـ فإذا لم يطلع عليك بعد غد .

ـ إذن لقد نمت إلى الأبد !

ولا أعرف مـن الذى ينافـس من . . لا أعرف مـن الذى يصر على أن يوجع دماغى . . أو يوجعنى أنا وهو ، أو يوجعنا جميعًا . .

أحيانًا أشعر كأننى عصفور خفيف . . أريد أن أقفز فوق الأشجار . . وأن أظل كذلك حتى الموت بين منقار صقر أو قطة . لا يهم . . فالإنسان لا يعرف كيف وأين ومتى تكون نهايته ، ولا يهمه كثيرًا أن يموت فى الماء فى بطن حوت ، أو فى الهواء فى بطن طائرة ، أو فى البيت فى بطنه هو !

فماذا حدث عندما ظهر علم النفس الجديد ، وعلم النفس التحليلى وعلم النفس المرضى ؟

جاء علماء النفس وملئونا بالحيوانات المفترسة . . أصبح القفص الصدرى قفصًا فى حديقة الحيوانات . . ففيه الكلاب والذئاب والأفاعى والأسود والحمير . . كلها جميعًا هى الإنسان نفسه ، ولكن هذه الحيوانات تظهر فى أوقات مختلفة ، ولكنها لا تظهر بالترتيب حسب ذكائها أو حسب قوتها أو حسب احتياجنا لها . . فعندما يحتاج الإنسان لأن يكون أسدًا يجد نفسه حمارًا . . وعندما يناسبه أن يكون أفعى يبدو حملا ، وعندما ينقذه من الموت أن يكونَ قطة لها سبعة أرواح ، فإنه يتحول إلى دودة ضعيفة .

ويرى علماء النفس أن طبيعة الأمراض النفسية أن تلخبط ترتيب هذه الحيوانات . . ترتيب أدوارها وظهورها على مسرح الحياة اليومية . بل إن الحضارة الإنسانية قد علمت الإنسان أن يخفى مشاعره ، فيبدو وديعا وهو ذئب ، ويزأر أسدًا وهو كلب . . .

ولكن من السهل على عالم النفس ، وعليك أيضًا أن تعرف الحيوان الذى تتحدث إليه . .

والتجربة بسيطة جدًا .

حاول أن تجرح كبرياءه .

حاول أن تمن عليه

حاول أن تخطف اللقمة من فمه . . والكرسى من تحته . .

هنا فقط تعرف أى حيوان هذا الذى أمامك . . وتعرف أى حيوان أنت أيضًا .

لا تغضب من نفسك ، ولا تحزن عليها ، ولا تنظر إلى من يقول لك على أنه قد أعطى لنفسه فرصة لكى يشتمك باسم العلم ، ويحتقرك باسم الحكمة . .

والحقيقة أنك كنت واحدًا منّ هؤلاء بعض الوقت ، فأنت كل هؤلاء كل الوقت ـ ولكنك لا تدرى ! .

(٥)
وكانت هذه آخر أنفاسه!

إذا كانت المرأة لا تملك إلا دموعها ، فإن الرجل يملك الكلام عن هذه الدموع . ولو كان الرجل يملك سلاحا أقوى من ذلك ضد المرأة لأطلقه عليها ، ولكن من حين إلى آخر يصدر كتابا يضم عبارات شائكة ويحاول أن يلقيها تحت فستان المرأة . . أو تحت جلدها .

ولكن الذى يدهش الرجل ويغيظه أيضًا : أن المرأة تشترى هذا الكتاب . . ويكون الإقبال على الكتاب تحية من المرأة لكل من يجرحها . . وفى الوقت نفسه يكون دليلاً جديدًا على أن المرأة تشجع الرجل على أن يقول . . لأنه مثلها لا يملك إلا أن يقول . . ولكن النصر فى النهاية تفوز به المرأة .

وأحدث كتاب صدر للكاتب الأمريكى « شين كنان » الكتاب عنوانه « لعبة الحب » . هذا الرجل من أشهر « العزاب » فى أمريكا . يقول المؤلف : لم أتزوج إلا منذ أيام . بعد أربعين عاما من الحياة الجميلة . . طائرًا خفيفًا وصديقًا لعشرات الفتيات . . ويبدو أن هؤلاء الفتيات قد دربننى لكى أكون زوجًا صالحا . أما هذه الصفحات التى أنشرها فليست

إلا أوراقًا قديمة فى أحد أدراج مكتبى . . لم تشأ زوجتى أن تقرأها . . إنها امرأة ذكية . دعونى أقول إنها خبيثة جدًا . . لأنها تعلم أن هذه الكلمات هى آخر أنفاسى . .

ويقول المؤلف : لابد أنها غريزة فى أن يجد الإنسان أنواعًا من الصدف أو الظلط الملون أو الأشواك على الأرض . . فيجمعها ويحاول أن يصنع منها عقدًا ــ فى أواسط أفريقيا يفعلون ذلك ــ ثم يعلقها فى رقبة من يحب . . أما أنا فأعرف أين أضعها . . أما أنت فحر فى اختيار العنق الذى تلف حوله هذه الأشواك . . أو أنت حر فى اختيار الشفتين المصبوغتين اللتين تلعنانك بإخلاص . . أما أنا فأعرف من الذى سوف يلعننى بعد أن أفرغ من هذا الكتاب . . إنه أنت !

* * *

لا شىء أعذب من الحب . . أى أكثر منه عذوبة وعذابًا .

* * *

الحب سحر يلخبط عقل إنسان من أجل إنسان آخر .

* * *

من النظرة الأولى يولد الحب . وفى الثانية يموت .

* * *

الحب مرحلة من حياة الرجل ، ولكنه كل حياة المرأة .

* * *

كل الناس يحبون المحبين .

* * *

الحب الحقيقى لا يظهر فى الصفحات الأولى من الصحف .

* * *

إن كان قصرًا أو سجنًا لا يهم : فالمحبون يجعلون كل الأماكن متشابهة .

إذا كانت الحياة زهرة فالحب رحيقها .

* * *

الحب : فترة استراحة لـذيذة بين رؤيتـك لفتاة جميلـة واكتشافـك أنها قبيحة .

* * *

الحب صياد ولكنه أعمى .

* * *

بلغة الأطباء : الحب مرض تحت الجلد . . أو هو تخدير كامل للجهاز العصبى .

* * *

إذا انتصر خيالك على عقلك : فأنت فى حالة حب .

* * *

الحب رد فعل اليأس .

* * *

أعطيه صورتك الجميلة ، وأعطها أنـت صورتك الجميلة : وبعد ذلك يجىء الوهم الجميل .

* * *

لا علاقة للحب بالزواج . فأنـت تتزوج مرة وتحب ألف مرة . فالزواج قانون والحب غريزة .

* * *

لا يصبح الحب ساحرًا ، إذا عرفه الناس .

* * *

طبيعة المرأة : أن تحبك عندما لا تحبها ، وألا تحبك إذا أحببتها .

* * *

إذا أردت من امرأة أن تحبك كن مجنونا . . فالمرأة لا تحب العقلاء .

من الضرورى أن تكـون حريصًا . . إلا فى الحب ، فـإن الحرص يقتل الحب .

* * *

إننى أفضل هذا الرجل لأنه كذا وكذا . . وإننى أحب هذا الرجل رغم أنه كذا وكذا .

* * *

خير لى أن يكون حبى فاشلا ، من أن يكون فشلى بلا حب .

* * *

كل ما تـريد أنت هو الحب : غلـط . . كل ما يريـده الحب هو أنت صح .

* * *

تقدمت للزواج مـن فتاة وكنت فى الرابعة من عمرى ، ثـم قابلتها بعد عشرين عاما ، فهنات نفسى على ذوقى الجميل .

* * *

الرجل يخطف القبلة الأولى . . ويتوسـل من أجل الثانية . . ويطلب الثالثـة . . ويأخـذ الرابعة وينتظـر الخامسة . . والبـاقى يجىء مـن تلقاء نفسه .

* * *

المرأة لا تزال تذكر القبلة الأولى ، بينما ينسى الرجل القبلة الأخيرة .

* * *

هذه الأيام يعيش الأعزب كالمتزوج . . ويعيش المتزوج كالأعزب .

* * *

الأعزب هـو الرجـل الذى ينظر أمـامه قبـل أن يخطو . . ثـم يقف فى مكانه .

يجب أن تشعر المرأة بـالامتنان لكـل هؤلاء العـزاب ، فلو كـان الناس

متزوجين جميعًا فمن أين يأتى لها العريس ؟

* * *

قررت ألا أتـزوج حتى أجد المرأة المثاليـة . ثم وجدتها . ولكنها كـانت تبحث عن الرجل المثالى .

* * *

إذا سألتـك إن كنت تحب تسريحتهـا هذه فـاحترس . . لقد قـررت أن تفاتحك فى الزواج بعد ذلك .

* * *

أسعد النساء مثل أسعد الشعوب . ليس لها تاريخ .

* * *

أن تتزوج : هذه مسألة خطيرة . . ألا تتزوج : هذه أخطر .

* * *

قرأت للعالم الكبير فرويـد هذه العبارة : بعد ثلاثين عامـا من الدراسة والبحث والفحـص والتأمل لم أستطـع أن أجد جـوابا عن هـذا السؤال . بالضبط ما الذى تريده المرأة ؟

* * *

الاشتباك فى الحرب : معركة . . وفى الحب : استسلام .

* * *

الحب قبل الزواج : مثل مقدمة موسيقية للحن ردىء .

* * *

كلما سافـر إنسان وتعلـم وتألم فى الخارج كـان ذلك أكبر دليـل على أنه سوف يتزوج فتاة من أعمق أعماق الريف .

* * *

ارتفاع نسبة الزواج بين مضيفات الطيران سببه أن الـرجال مربوطون فى مقاعدهم .

الأذن عفيفة ولكن العين جريئة

* * *

ـ هل تستطيع أن تغسل الأطباق ؟

* * *

ـ نعم بشرط أن تجففيها .

* * *

المرأة تختار الرجل الذى يختارها !

* * *

الزواج كتاب : الفصل الأول نظمناه شعرًا ، أما بقية الفصول فقد كتبناها نثرا .

* * *

الرجل والمرأة يتزوجان : لأن أحدًا لا يعرف ما الذى يصنعه بحياته .

* * *

الزواج هو أكبر دليل على اللقاء السعيد بعد شىء لا يمكن زحزحته . وقوة لا يمكن قهرها .

* * *

فى الزواج كما فى الحروب : استخدم كل الوسائل لحقن الدماء .

* * *

لا هو جنة ولا هو نار : بين بين .

* * *

الزواج : ذكرى الحب الذى كان .

* * *

الزواج ليس كاملا ، ولن يكون . . ولكنه أجمل وأكمل العلاقات الإنسانية .

الزواج ينطبق عليه المثل المصرى الشعبى : لاقينى ولا تغدينى .

* * *

الزواج : كالفلوس فى جيبك . . ولكن سعرها فى النازل دائمًا .

* * *

الزواج كورقة اليانصيب . . ولكنك لا تستطيع أن تمزق الورقة الخاسرة .

* * *

الزواج معجزة تحول القبلة إلى واجب ، والحياة إلى عيشة والسلام .

* * *

كل امرأة : أم فى الصميم . . وكل رجل : أعزب فى الصميم .

* * *

كثيرون يقولون : كان نجاحى بسبب زوجتى الأولى . . وكانت زوجتى الثانية بسبب نجاحى .

* * *

خير لك أن تحب زوجتك من ألا تحب مطلقًا .

* * *

زوجى لا يعاكس امرأة أخرى . إنه عاقل . . رقيق . . مهذب وعجوز أيضًا .

* * *

الزوجة المثالية لا تكون إلا إذا كان زوجها مثاليا .

* * *

مع رجل تحبه كل النساء : إنها فى حالة شك . . ومع رجل تكرهه كل النساء . أنت تعيسة .

بعـد الثلاثين : تكـون لـك أفكار عـن المرأة . قبـل الثلاثين : تكـون عندك مشاعر .

* * *

المرأة انتصار للمادة على العقل ، والرجل انتصار للعقل على الأخلاق .

* * *

فى جلسة النساء أحب جمالهن وأناقتهن وزينتهن . . وصمتهن !

* * *

أحب شاعرية الرجل ولا أحب الشعراء .

* * *

لا أحب الرجل الذى استلطفه ، ولا استلطف الرجل الذى أحبه .

* * *

إذا رجل أتى لزوجته بهدية من غير سبب ، فلأن هناك سببًا .

* * *

وجه المرأة رأس مالها . . ولكن الأرباح تعود على بقية الجسم .

* * *

أول سؤال يجب أن يخطر على بالك إذا قابلـت أرملة مرحة : ولكن لماذا أنت مرحة ؟

* * *

المرأة تمر بست مراحل من عمرهـا : طفلة وطفلة صغيرة وآنسة وسيدة شابة وسيدة شابة وسيدة شابة .

* * *

تحتاج الأم إلى عشريـن عاما لتجعل مـن طفلها رجلاً عاقـلاً ، وتحتاج امرأة أخرى إلى عشرين دقيقة لتجعل منه مغفلا .

ولم يكن شيخنا الشيطان !

مثل كل الوافدين من الريف ، كان هدفنا : التوطين والبديل . .

أى أن نوطن أنفسنا فى القاهرة فنعرف شوارعها والترام والأهرام وأولياء الله الصالحين ثم الصعلكة فى الشوارع والمكتبة العامة . . والانبهار بالدنيا الجديدة والخوف من الضياع فيها . . فى الريف كل شىء قريب . . وكل الناس أقارب . . وفى الريف أنت ترى وتسمع وتلمس كل إنسان . . ولا توجد أسرار . . فالمسافات متداخلة . . ثم إننا أسرة واحدة . . مثل الأصابع فى يد واحدة . . ولكن فى القاهرة فالشوارع طويلة والمسافات بعيدة وليس كل من تراه تعرفه ولا كل من تعرفه صديقك أو قريبك أو يمكن أن تهمس فى أذنه بما يخيفك . . فى الريف أنت لست فى حاجة إلى أن تهمس فكل الناس يعرفون كل الناس . . أما فى القاهرة فقد غطوا حواسهم فلا يرون ولا يسمعون ولا يلمسون ولا يهمهم كثيراً أن يكون لك وجود . . .

وكذلك إلى القاهرة جئنا نبحث عن البديل . . عن الأسرة البديلة . . عن الأب والأم والأشقاء . ونبحث عن « سيدنا » أو « شيخنا » . . فالذين تعلموا فى كتاب القرية كانوا يجلسون على الأرض . . أما معلمنا ـ سيدنا

فهو يجلس فوق مصطبة . . يجلس عاليا . . نرفع رؤوسنا لكى نراه . والكلام ينزل علينا من شفتيه مقدسًا . . أو أوامر صارمة . . فهو الذى علمنا كيف نتلو القرآن ومبادئ الكتابة والضرب والطرح وهو الذى يصدقه كل الناس . . فإذا شكوناه إلى الدنيا فإن أحدًا لا يصدقنا . . إنه سيدنا . . إنه شيخنا وهو لا يكذب . . وفى القاهرة وجدنا البديل فى الجماعات الدينية والصوفية والأدبية . . وحاولنا أن نجد فى الأستاذ الجامعى أبا ومعلما . . وأجلسناه عاليا . . ولكنه لم يستطع أن يكون أبا أو أخا لألف طالب . . بينما كان سيدنا أبا وأخا لعشرين أو عشرة من طالبى العلم الصغار . . فالمدرجات الجامعية كبيرة واسعة . . والطلبة كثيرون . . والمسافة بيننا وبين الأستاذ بعيدة . . والأستاذ ليس « شخصيًا » فى كل تصرفاته . . فهو يكلمنا عمومًا وينظر إلينا عمومًا . . فهو لا يركز على واحد منا . . وإذا فعل فثانية واحدة . . ولذلك كان الطلبة يحاولون أن يربطوا أنفسهم بالأستاذ . . وكان الرباط من طرف واحد ـ طرفنا نحن . .

وأدركنا أن هذا هو الوضع الجديد فى القاهرة . .

لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت . . وكل ما بيننا : صلة . . علاقة . . أما (الوشيجة) أو العلاقة الحميمة فتلك كلمات ريفية . . والقرب والقربى والقرابة كلمات ريفية . . أما الكلمات فى العاصمة فهى : الغربة والغرابة والاغتراب والمسافة والهوة والفجوة . .

ويسبب هذا الشعور بالمسافات كان لابد أن نبحث عن مأوى . . عن حضن آمن . . عن مخبأ فى مواجهة المجتمع الكبير المتوحش . . الذى يسحق كل فرد . . والذى لا نستطيع أن نواجهه وحدنا . . ولكن لابد من ساتر . . ولابد من رباط . . من جمعية . . جماعة . . أسرة . .

وهكذا انقسم المجتمع الكبير فى العاصمة : نحن وهم . . نحن الوافدون من الريف وهم أبناء العاصمة الذين لا نعرفهم ولا نفهمهم . . .

(إننى أحـاول هنا أن أرد على الشـاب الذى بعـث لى سؤالا أثنـاء ندوة المعرض الدولى للكتاب . . يقول فيه : إننى أحسن حظًا منه . . فقد كان لى أسـاتذة . . . وليـس لـه . . كـان لى العقاد ود . طـه حسين والحكيـم وحسن البنـا ولطفى السيـد وسلامة مـوسى ولويـس عوض وعبـد الرحمن بدوى) .

ولم نسأل أنفسنـا : ولماذا يكون لنـا أستاذ . . أو شيـخ . . لماذا يحتاج الإنسان إلى تـرجمان لكى يعرف الهرم وأبـا الهول ! لماذا لا نقرأ عن ذلـك ثم نذهب وحدنا نفهم ونحاول . . وإذا لم نفهم فإننا نحاول مرة أخرى . . ولم نسأل أنفسنا إن كان من الضرورى أن نحتفظ بصورة (الكتاب وسيدنا) فى جيوبنا وقلوبنـا مدى حياتنا فى القاهرة ! وإذا كـان هذا مستحيلاً ، فلماذا إصرارنا على المستحيـل . . ألا توجد مشـاكل أخـرى . . هموم أخرى . . خيوط خطـوط . . عقد وحلول وعلامـات مرور وأهداف بعيـدة وأهداف قريبة . . لم نسأل أنفسنا . . وإنما كنا مثـل كائنات (مبرمجة) . والبرنامج هو أن نبحث عن سيدنا الشيخ فى كل مكان . لماذا ؟ لأن الحكمة الصوفية تقول : من لا شيخ له فشيخه الشيطان !أى لابد أن نضع أيدينا على كتف من هو أكثـر علما وتجربة وبصيرة . . لابد أن يكون لنـا مرشد عام ومـرشد خاص . . لابد أن نخوض به ومعه ووراءه خضم الحياة فى العاصمة . .

ولذلك لم أندهش بعد ذلك عنـدما انضممت إلى جمعية (ثيو صوفية) أى جمعية الحكمة الإلهيـة . . هذه الجمعية تضـم عددًا مـن موظفى محلات شيكوريل وهانو . . وكان يرأس هذه الجمعية شاب مصرى يهودى . . ولم أندهـش فى ذلك الـوقت كيف أكـون أمينا لمكتبـة (الإخوان المسلمين) فى إمبـابة وفى نفـس الوقـت عضوا فى هـذه الجمعيـة التى تتحـدث عن كـل الأديان . . وإلغاء الفوارق بين الناس . . وفى نفـس الوقت كنت عضوا فى جميعة يسارية فى الجيزة . . وكان المذهـب الشيوعى يبهرنى ويسحرنى فكل كلام الشيوعيين منطقى وبالعقل . . ومـن الذى لا يريد أن يتحقق العدل

فى الدنيا . . فلا غنى ولا فقر ولا ظالم ولا مظلوم . . وكان من آمالى فى ذلك الوقت أن أعيش لأرى الحياة كما تمناها ماركس ولينين وتروتسكى وسيلونه . . من الذى لا يتمنى أن يعيش ولو عاما واحدا فى دنيا بلا فلوس ولا ذهب . . فكل شىء ملك لكل الناس . . تمامًا كالحياة فى الغابات . . الأشجار والثمار لكل الناس . . وقد انضممت أيضًا إلى جماعة (الاسبرانتو) أى اللغة الدولية . . وهى اللغة التى وحدت بين كل اللغات وأزالت الفوارق بين اللغات الأوروبية بتبسيط قواعد النحو والصرف - إنه حلم رائع وطموح عظيم أن نمسح الفوارق اللونية بين الناس . . والحواجز اللغوية . .

حتى اهتديت إلى الأستاذ العقاد . . وكنا نزوره فى بيته كل يوم جمعة . . وهو أكبر شحصية رأيتها فى حياتى حتى ذلك الوقت . . إنه مختلف عن كل الناس الذين عرفتهم أو قرأت عنهم . . فالعلم يتدفق منه بسهولة . . ولم يبهرنى علمه ولكن بهرنى عقله واستيعابه وقدرته الفذة على التحليل . . وظللت مسحورًا بالرجل . . فهو أهم حدث أسبوعى فى حياتى . . وكنت أستعد لهذا اللقاء . . وأحاول أن أعيشه . . فأنا أتحدث عنه قبل أن ألقاه . وأتحدث عنه بعد ذلك . . فاللقاء ساعتان فى كل أسبوع . . ولكن الحديث عنه طوال الأسبوع . .

وعرفت طه حسين أيضًا . ولكن مع الأسف عرفت طه حسين متأخرًا جدًا . وقد حجب العقاد عنى رؤية هذا الفنان العظيم . . وحجب طه حسين عن عينى رؤية توفيق الحكيم . .

أما حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين فهو طراز مختلف من الناس . . .

أما سلامة موسى فقد عرفته عندما عملت فى (الجريدة المسائية) التى رأس تحريرها كامل الشناوى . . ثم عرفته بعد أن أغلقت هذه الجريدة

وذهبنا معا إلى مجلة (النداء) التى يملكها ياسين سراج الدين ويرأس تحريرها على عبد العظيم المحامى . . وعندما ذهبنا معا إلى أخبار اليوم . وكان من الصعب أن أحبه . . فهو ليس ودودًا ولا رحيمًا وإنما هو ساخر بكل ما تعلمناه . . وما فرحنا به . .

ولم أتساءل إلا متأخرًا جدًا : من هذا العقاد ؟ من طه حسين ؟ ومن الحكيم ؟ وكانت نظرتى إلى هؤلاء من نافذة صوفية . فالصوفية ترى أنه لابدأن يكون للإنسان شيخ يهديه سواء السبيل . . ولم أجد واحدًا منهم شيخًا أو عنده هذه القدرة . . أو هذه الرغبة . . أو حتى يراها ضرورية . .

سألت أستاذى الشيخ عبد الرحمن أبو الفداء المطراوى وهو بلدياتى . وهو أول رجل وقور أراه عند وصولى إلى القاهرة ، فقد حملت له خطابا من أحد أقاربى وكان عالما من علماء الأزهر الشريف . ولم أعرف ما الذى قاله له . وما الذى أوصاه بى . لا أعرف ولا حاولت . ولكن الشيخ المطراوى طلب منى أن أزوره بعد العشاء . . لابد أن يكون بعد العشاء . . ولابد أن أشرب القهوة وأن أشرب النعناع . . وأن يجلس هو على الدكة وأجلس أنا على الأرض ـ وشرح ذلك بأن طالب العلم يجب أن يكون متواضعًا . فمن تواضع لله رفعه إلى أعلى مقام . .

وكانت الأرض من البلاط . . وكان لابد أن أعطس . . وعطست . وأصابنى الزكام ولم يشأ الرجل أن يأتى لى بشاى بليمون أو اسبرين . . وإنما رأى فى هذه الإصابة بداية التجربة والمعاناة والمشقة . . . قال لى اسمع ياولدى !

وشرح لى مراتب التعليم الصوفى . . وقال لى إن الطريق طويل . ولكن الطويل بالصبر يصبح قصيرًا . والثقيل بالإيمان يصبح خفيفًا والعظيم بالتواضع يصبح يسرًا . وإن هذه هى البداية . . فالشيخ ـ عند الصوفية ـ هو أعلى المراتب . . والشيخ هو الرجل الذى فيه كل الصفات

والفضائل وهـو العالم بكـل شىء . ويـوم القيامـة يجىء مقعده إلى جـوار عرش الله . .

وهناك أولا : شيخ الإرادة . وهى أعلى الرتـب . فهو الذى إرادته هى إرادة كل الناس .

وثانيا : شيخ الاقتداء . . أى الذى هو قدوة حسنة لكل السالكين فى هذه الطـريقة الصـوفية الشـاذلية . . وثـالثا : شيـخ التبرك . . أى الذى يذهب إليه الطالبون حتى تحل بركته فيهم . . رابعًا : شيخ الانتساب . . فكل طالب يجب أن ينتسب إلى شيخ . .

فيقال هؤلاء تلامذته وأتباعه وحواريوه . . ويقوم الطالب بدور الخادم يغسل ويكنس ويمسح البلاط ويجلس على الأرض وينفض حذاء الشيخ وكنا نفعـل ذلك فى (كتاب القـرية) وكنا نخـرط الملوخيـة لزوجة سيـدنا ونغسل ونطعم الأرانب ونقشر البصل . .

خامسا : شيخ التلقين وهو المعلم الروحى الذى يعطى لكل واحد من السالكين فى هذه الطريقة ما هى الأدعية التى يرددها . .

سادسًا : شيخ التربية أى الذى يقوم بتدريب المبتدئين . .

ومن الممكن أن تتجمع كل هذه الصفات والمهام فى شخص واحد . . وكان شيخنا المطراوى هو كل هذه الصفات . فالجلوس على الأرض حتى الزكام لم يكن شيئًا كبيرًا . . ولكنه بداية التواضع !

فليكن . ما الذى تحصل عليه بعد ذلك . لم أحصل على أى شىء غير عدائى المستمـر لجسمي ولنفسـى واحتقار كل رغبـاتى . . وفى مقـدمتها احتقارى لنفسى وقلقى ورغبتى فى أن أعرف وأن أفهم . . وأن أفرز طريقًا وأشع ضـوءًا . . كما تفعل العنـاكب التـى تفرز خيـوطها . . والكـائنات الليليـة كلها تضـىء لنفسها إذا غـاب القمـر وغربـت الشمس واختفـى الشيخ سيدنا . .

ولم أجد شيئًا من ذلك لا فى العقاد ولا طه حسين ولا الحكيم ولا لطفى السيد ولا أحمد حسن الزيات ولا أحمد أمين ولا محمد عوض محمد ولا محمود حسن إسماعيل ولا عزيز أباظة ولا على أدهم . . لا شىء عندهم . . فهم جميعا مشغولون بأنفسهم . . يحاولون تأكيد ذواتهم . . وليس تأكيد أحد إلى جوارهم . . ولذلك بدأت أشعر فى جلسات العقاد أنه يعاملنا على أننا عيال . . حتى الفلسفة التى تخصصنا فيها . كان العقاد يسفهها . . وكان هجومه أعنف على أساتذتنا . . أى لا هو ولا يصح أن يكون لنا أساتذة . . إذن ماذا نعمل ؟ ولم يشغله هذا السؤال وإنما هو سعيد بأن يقوم بدور الحاوى يخرج الكتكوت من جيب البيجاما . . ثم يلقى بعصاه فيأكل عصا أساتذة الفلسفة والفلاسفة أيضًا . .

ولما قلت للأستاذ العقاذ فى إحدى المرات إننى أؤمن بالفلسفة الوجودية كانت سخريته عظيمة جدًا . . وإننا ـ وإننى مرضى . . وإننا مشوهون نحن والشيوعيون ولكن ما هو الحل ؟ ما هو العلاج ؟ ما الذى نعمله إذا نزعنا أزياءنا الفلسفية ؟ لم نجد عند الأستاذ العقاد حلا لذلك . . إنه أقنعنا بأننا نعيش فى مخيمات قذرة منهارة . . هدمها فوق رؤوسنا وتركنا نبحث عن مأوى . . ولم نجد هذا المأوى عنده . .

وازددت تمسكا بالفلسفة الوجودية كنوع من العناد وإثبات الذات والتحدى للأستاذ العقاد !

إذن العقاد ليس أبا وليس شيخا لنا . . وإننا عندما ذهبنا كنا نطلب إليه ما ليس عنده . . وعندما ذهبت إلى طه حسين . . إنه ألطف وأرق . . . وإنه أكثر أبوة من الأستاذ العقاد . . ولكن طه حسين هو الآخر مشغول بنفسه بفنه بعظمته . . بفرديته فى الأسلوب والنقد . . وإنه لم ينس أنه عميد وأنه وزير . . وأنه شيخ مشايخ الطرق الأدبية المعاصرة . . ولكنه لم يقل لنا ماذا نعمل ولماذا نكتب ولا كيف ؟

إنه شيخ ولكن بطريقة خاصة . . شيخ أزهرى تعلم فى باريس ، فهو يكره أن يكون شيخا . ويكره أيضًا ألا يكون شيخا . . إنه متفرع . وله منا عظيم الاحترام لشجاعته وانطلاقه . ولكنه لم يقل لنا أين وكيف ومتى نبدأ!

وعندما سئل الأستاذ العقاد عن رأيه فى أنا قال : ومن هذا ؟ وكنت أتردد على ندوته من عشرين عاما . . يعنى أنه لم يقرأ لى شيئًا كتبته والذى قرأه لا يجعله يرى أننى شىء . . أو من الممكن أن أكون . . بينما طه حسين قرأ وحدثنى ثم كتب لى مقدمة لكتابى (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) . وكان سقراط الأستاذ . . وكان أرسطو الفيلسوف . . ولأن له تلامذة بمئات الألوف ، فلم يمنحنى أكثر من ذلك !

أما توفيق الحكيم فكان صديقًا مسليا لكل الناس . . لا هو أستاذ ولا هو شيخ ولا يحب أن يكون كذلك . وله عقلية تشبه شبكة الصياد . . أو تشبه المصيدة فهو يجمع الناس حوله ويتصيد أفكارهم ويكتبها . . وقد وقع الحكيم نفسه فى هذه المصيدة التى نصبها للآخرين . . فسمع قصصًا كتبها بعد ذلك . . ولم تكن هذه القصص إلا أفلاما معروضة فى دور السينما ؟! .

ولا كان أستاذا لاحد ولا شيخا لأية طريقة . . وقد سألنى أحد الحاضرين فى ندوة المعرض الدولى للكتاب إن كان العقاد وطه حسين والحكيم هم الذين وضعونا على الطريق الصحيح ؟

وجوابى : أنه ليس صحيحًا . فهم لم يضعوا أحدًا . وليس بيننا واحد قد تأثر إلى درجة التلمذة على واحد من هؤلاء . . حتى أنا الذى كتبت عنهم كثيرًا . وعن العقاد أكثر . . لم تكن كتابتى عن العقاد إلا عن نفسى فى مواجهته . . فأنا الذى صورت العقاد ألطف وأظرف . والحقيقة أنه ليس كذلك . . وإنما اخترت ما يعجبنى ومالا يضايقنى أثناء كتابته . .

والصدمة الحقيقية للقارئ هي بعد أن يقرأ كتابي (في صالون العقاد) ثم يقرأ العقاد نفسه سيجده جافا خشنًا .

وقد حاولت مرة أن أعرض أحد كتب العقاد في عبارة سهلة . فاخترت كتاب العقاد عن أبي نواس . وقرأ توفيق الحكيم ما كتبت فقال لي : ولماذا لا تبسط كتب العقاد كلها . . إنهم في الغرب . .

ولم أدعه يكمل عبارته وإنما بادرته ساخطًا : تريدني أن آخذ من عمري وأضيفه إلى عمر العقاد ؟ طبعًا لا . ولا أرى أحدًا في لغتنا أو في أية لغة أخرى يستاهل هذه التضحية الضخمة !

بل إن هؤلاء الثلاثة الكبار لم يحققوا معا تحولا جذريًا في الفكر المصري أوالعربي . . وإنما كل واحد كان يعمل في طريق . نحن فقط الذين رأينا أنهم يسلكون طريقًا واحدًا بأدوات مختلفة . . إنهم (ثلاثية / التنوير) في هذا القرن . . . ولكنهم كانوا متنافرين كأنهم عاشوا وماتوا في قرون مختلفة . .

وكتب الأدب الروسي ـ مثلا ـ تروي لنا لقاء تاريخيًا فريدًا . . اللقاء تم بالصدفة على شاطئ البحر . . وقد التقى ثلاثة عظماء في سنة ١٩٠١ التقى الثلاثة في مدينة يالتا لأسباب صحية ، وبالصدفة تولستوي (٧٤ سنة) وتشيخوف (٤٢ سنة) وجوركي (٣٣ سنة) . . .

لقد التقت ثلاث مراحل تاريخية .

وثلاثة أنماط من الفكر .

وثلاث طبقات اجتماعية . . أما تولستوي فهو الارستقراطي الفردي الساحر القادم من القرن التاسع عشر . . وتشيخوف هو المفكر ابن الطبقة المتوسطة الذي يحترم العلم ولا يهضم التجريدات الفلسفية وغير قادر على أن يرسم لها صورة متكاملة .

وجوركى هو ابن الطبقة العاملة الثورى الواثق من معلوماته والمتأكد من خطواته .

وكل من تشيجوف وجوركى ينظر إلى تولستوى على أنه الرجل الساحر الذى ينتمى إلى عصر آخر ذهب ويجب أن يذهب ولا يعرف أن فى الدنيا معابد جديدة لآلهة جديدة . . وإن تولستوى هو الذى ملأ وجدان الناس ثم هرب وترك قلوب الناس فارغة . . وجوركى كان ينظر إلى تولستوى فى فزع وانتفاض . . فهو يرفض فلسفته الأصلية ، ويستنكر بنيانه الأخلاقى القائم على المقاومة السلبية ، ومواجهة الفساد بالسخط وليس بالثورة فى زمن التطور الصناعى والطبقة العاملة المتعاظمة ، وإن الشعب هوالملك صاحب التاج وصاحب الإرادة .

قال تشيجوف لجوركى : كنا فى حاجة إلى هذا اللقاء لكى نؤكد لأنفسنا أننا فى عصر آخر . وإنه من الواجب علينا الآن أن نقول ذلك للناس . أما تولستوى فسوف يبقى رمزًا لزمن مضى ولن يعود ، ولساحر لم نعد نحن المتفرجين عليه ! .

وكنا نسمع إلى رأى العقاد فى طه حسين . ويضايقنا ذلك .

وكنا نسمع لسخريات طه حسين بالعقاد ، ولا يسعدنا ذلك .

وكان توفيق الحكيم يسخر من الاثنين .

وفى نفس الوقت لم يكن بيننا نحن المترددين على ثلاثتهم لا أخوة ولا وفاق ولا رغبة فى رسم طرق جديدة وفتح شوارع وإقامة جسور . . ففى الوقت الذى آمنا بعظمتهم كفرنا بهم أيضًا . إنهم لم يشجعونا على الإيمان بهم . . ولا مدوا أيديهم ولا فتحوا أحضانهم . . ولا تركوا لنا جانبا من الشوب نجلس عليه . . . ولا حتى أشاروا إلى الأرض أن نكنسها وأن نغسلها وأن نجلس ونتطلع إلى فوق ونتواضع أمام الحكمة التى تتنزل علينا من منابع التنوير فى السبعين عاما الماضية !

وقد ظهرت فى القرن السابع عشر رواية اسمها (الرواية ذات المفتاح) وهى عبارة عن رواية أحداثها حقيقية . ولكن أسماء أبطالها مستعارة . . أما المفتاح فهو أن يجىء المؤلف أوالناقد بعد ذلك ويكشف لنا الأسماء الحقيقية لهؤلاء الأبطال . . وكان ذلك حالنا مع الثلاثة الكبار . . ولكن كان حالنا معكوسًا . . . فقد كنا نشعر بأننا نعيش رواية ذات مفتاح . . أبطالها العقاد وطه حسين والحكيم وغيرهم . . ولكن كنا نتصور أن هذه الأسماء مستعارة . وليست حقيقية فنحن لا نعرفهم . والمسافة بيننا وبينهم بعيدة . وهم يروننا صغارًا جدًا . . . ونحن لم نعد نراهم كبارًا جدًا . . وهم يرفضوننا ونحن أيضًا . ولكن إعجابنا بالحكمة والسحر لا يزال قائمًا . . ولكنهم رجال لا إنسانية فيهم . . مفكرون بلا قلب . . أساتذة بلا طلبة . . فهم لا يروننا طلبة وإنما يروننا متفرجين فى مسارحهم . . وإنهم مشغولون برسم أدوارهم البطولية . . .

أما أسماؤهم الحقيقية فهى : أنهم فرديون رافضون . فلا كانوا سعداء بنا ، ولا كنا . . فيا صاحب السؤال لم نكن سعداء كما تتصور . . بل ربما أنت أكثر سعادة . فأنت لا تتوقع شيئًا ، فليس معك أو أمامك أحد تتوقع منه شيئًا . أما نحن فكنا نرى ونعجب ثم نجد الباب الخارجى والشارع والبيت ثم نمضغ المرارة ونحتضن اليأس وننظر إلى أيدينا وإلى سيقاننا فهى وسيلتنا الوحيدة لأن نمضى وأن نمشى وأن نصعد وأن ننظر من فوق ! .

بطل هذا الزمان غريب حزين عريان

لن تحتفل روسيا (الاتحاد السوفيتى سابقا) بمرور ١٥٠ عامًا على وفاة شاعرها الحزين لرمنتوف (٢٧ سنة) . وهو حزين لأنه غريب عن زمانه وهو غريب لأنه حزين . . وليس شاعرًا من لم يكن غريب الدار والألم . وقد تدفقت موهبته الشعرية وهو فى الثانية عشرة من عمره . ولأنه صغير السن باهر التجربة ، فقد كان يعود إلى صياغة قصائده وقصصه القصيرة يقول لرمنتوف : إننى أصرخ أولا ، وبعد ذلك أحاول أن أجعل لصرخاتى وزنًا وقافية ! .

ويقول : وبعد أن أجد الوزن والقافية ، فإننى أضىء الحروف ثم أنثر النار بينها !

وروسيا لن تحتفل بشاعرها الحزين الغريب . . فالشعوب السوفيتية كلها حزينة . . فقد انهارت قصورها المذهبية . . وسقطت الشيوعية وهى دينها الذى خرج من الأرض ولم ينزل من السماء ، فهو دين له كتب مقدسة وله أنبياء ولكن ليس له إله . . ولو ظهر لرمنتوف فى هذا الزمان ما وجد شيئًا يقوله ، ولو وجد ما يقوله فإن أحدًا لا يفهمه . . وإذا سمعه وفهمه

فإن أحدًا لن يشدو به . . فليس إلا واحدًا من ٣٠٠ مليون غريب فى أرضه حزين على عرشه . .

ولرمنتوف يرى أن الإنسان هو الملك المخلوع . .
هو القوى الذى لا قيمة لقوته ولا جدوى . .
فهو العملاق الأعرج ، وهو الوسيم الأعمى .
وهو العريان على سطح قصر جميل !

ولرمنتوف من أصل اسكتلندى . فقد هاجرت أسرته فى القرن السابع عشر . أبوه فلاح فقير تزوج ابنة فلاح غنى . وكانت حماته تعيره بأنه ليس إلا صفقة خاسرة وزواجه من ابنتها أكبر دليل على حماقة الفتيات الصغيرات . أما حفيدها لرمنتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١) فأكبر دليل على أن الأرض الكريهة الرائحة من الممكن أن تخرج منها زهور بديعة الألوان جميلة الشذى . . ولذلك قررت جدته أن تقتلعه من حضن والديه ـ فهو مختلف عنهما . ويجب أن يبقى مختلفا . وأن تسحبه من عرش الأمومة والحنان . فهى أحق به . وكان الشاعر (المخلوع) لرمنتوف يعيش مدللا عند جدته . . وإذا ذهب إلى والديه ، فلكى يعود فى نفس اليوم . فأبوه وأمه لا يكفان عن الشجار . . وكثيرًا ما رأى وسمع أمه تقول لأبيه : خسارة فيك هذا الولد الجميل . .

والأب يقول : من أين كان فى استطاعتك أن تأتى بهذا الحس المرهف . . إنه اسكتلندى وليس فلاحا روسيا غليظًا . إنه ابنى !

وأدرك لرمنتوف فى سن صغيرة جدا : أن الشاعر يتيم . . أو يجب أن يبقى يتيما . . له أب وأم ولكن لا وجود لهما فى وجدانه . . وأن يكون غريب الدم غريب الوجهة . . فبوشكين أمير الشعراء الروس زنجى الأصل . . ولكن الشعر هو الذى ارتفع به فوق جدران الكون إلى السماء !

وكل قصائد لرمنتوف لها معنى واحد : إن الإنسان قوى ، ولكنه عاجز

عن أن يفعـل شيئًا له قيمة . . وإن الإنسـان وحيد . . وإنه عند صنـاعة القرار يكون أكثر وحدة . ولكن ما القرار ؟ إنه شيء تافه . . فالإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على التفاهة والسطحية !

فالإنسان تافه ـ هذا شعوره . .

والإنسان سطحى ـ هذه حاله . .

والإنسان أجوف ـ هذه آماله . .

والإنسـان مثل شجـرة اقتلعت مـن الأرض وألقيت على سطحهـا . . فـرأسه فى مستـوى قـدميـه . وعقله فى مستـوى معـدتـه . . فالكـل على السطح . . سطحى . . تافه . .

ففـى عصر القيصر نيقـولا الأول ، عصر القهر والبطـش . . والتمـرد الخفى ، لم يكن فى استطاعة أى إنسان أن يكون إنسانا . . ولا فى استطاعة الشاعر أن يصنع شيئًا غير البكاء . .

وقد عرف لـرمنتوف الطرد والنفى والسجن فى سـن صغيرة . . فعندما مات أمير الشعـراء بوشكين فى معركـة تافهـة نظم قصيدة عنـوانها « موت شاعـر » لم يستطع نشرها وإنما حفظهـا الناس وتنـاقلوها . فصـدر حكم عليه بـالطرد والنفى إلى مجاهـل روسيا . . فقـد كان يسخر فيهـا بالقيصر والعدالة وتفـاهة الناس . يكفى أنـه لا يحتقر عجزًا . وإنما هو يتبـاهى به يكفى أنه لا يشعر بأنه قزم الإرادة ، غريزى الدوافع ، وأنه نسى أن له رأسا يجب أن يكون قمة تكوينه النفسى والعقلى . .

يقول لرمنتـوف : عار أن تمر العاصفة علينـا فنحنى لها رؤوسنا . . إن رؤوسنا لم يخلقهـا الله لتنحنى للعواصف ، وإنما للسيـوف فقط . إن الله لم يجعـل الإنسان قـائمًا مستقيما مشدودًا ، لينكسر وينحنـى أمام أى إنسـان آخر مهما كان الذهب عند قدميه !

شيء واحد نحسد عليه الشعوب السوفيتية . إنها لن تحتفل بالشاعر لرمنتوف ، حتى لا يمل الناس اسمه . وحتى لا يكفوا عن قراءته . . فمن عادة الشعوب الشرقية أن تسرف فى حفاوة القادمين والذاهبين . . الأحياء والأموات حتى يضيق الناس بالاسم والجسم . . وحتى يكون الملل هو الهواء الذى يتنفسه الجميع . .

ومنذ أيام كنت فى فيينا فقرأت فى الصحف أن الشعب النمساوى قد ضاق بالإرهاب الموسيقى لموتسارت . . ففى العام القادم تحتفل النمسا والعالم بمرور قرنين على وفاة موتسارت . . ولذلك فالمطاعم والفنادق وصالونات الحلاقة والسيارات والصحف قد امتلأت بموسيقى موتسارت . . فلم يعد هناك إلا موتسارت فى كل هواء وعند كل طعام . . فضاق الناس بذلك . . ولم يعد للناس خيار . . موتسارت ولا صوت يعلو على موتسارت . . ولا اسم ولا رسم إلا لموتسارت . . فتعالت الأصوات تطلب الرحمة وتطلب الحرية !

ونحن من أكثر الشعوب إرهابًا فى الحفاوة بالأحياء والأموات . . نظل نغنى ونزمر ونطبل ونبكى ونصفق ، حتى يزهق الناس ويلعنوا اليوم الذى ولد فيه والذى مات فيه صاحب المولد !

مرة واحدة فى تاريخ مصر كلها لم نستطع أن نشيع الملل والزهق رغم عظمة الذكرى . ولكن ساعدنا على ذلك أن المحتفى بهم ليست لهم شعبية . . وإنهم فى نفس الوقت كثيرون كان ذلك فى عام ١٩٨٩ . عندما مرت مائة سنة على ميلاد : العقاد وطه حسين وإبراهيم المازنى وعبد الرحمن الرافعى وإيليا أبو ماضى وهتلر ونهرو وشارلى وكوكتو. والفلاسفة هيدجر ومارسيل ونتجنشتين . . مر هذا العام بسلام . . فليس معروفا قدرهم عند الناس .

ورغم أهميتهم وخطورتهم فإنهم قد احتموا فى بعدهم عن العين وبعد

الناس عنهم . ولذلك فأسماؤهم إذا ذكرت الآن لا يقابلها الناس بالتثاؤب والضيق بها والبحث عن وجهة أخرى تهرب إليها . .

ولرمنتوف أمير الأحزان ، وشاعر الغربة ، والشجرة المخلوعة ، والزهرة المسحوقة الأوراق المنتشرة العطر عاش طفلاً ومات شابًا مثل كل الشعراء الرومانسيين . . فهو مثل أمير الشعراء بوشكين قد قتل فى معركة تافهة مع ابن السفير الفرنسى . . ولكنه احترق بقوة ولأن الاحتراق والضوء كانا أقوى من احتماله فقد انطفأ فى أوج عبقريته . . ولو لم يمت قتيلا ، لمات مريضًا . .

ومثله الرومانسيون العظماء الصغار : شعراء الإنجليز روبرت بروك (٢٣ سنة) وكيتس (٢٦ سنة) وشيلى (٣٠ سنة) وبيرون (٣٦ سنة) . . والألمان نوفالس (٢٦ سنة) وفون كلايست (٣٤ سنة) وأمير الشعراء هيلدر لين عاش ٨٠ عاما منها ٤٣ عامًا فى مستشفى الأمراض العقلية . . والفرنسى رامبو (١٧ سنة) والشعراء الرومان : الإمبراطور نيرون (٣٠ سنة) وكاتولوس (٣٠ سنة) وستاتيوس (٣٤ سنة) وبوشكين (٣٦ سنة) والشاعران الروسيان اسنين (٣٠ سنة) . . وما يكوفسكى (٣٧ سنة) .

وعبقرى الموسيقى فى كل العصور موتسارت (٣٥ سنة) . .

فما الذى قاله شاعرنا المغترب حزنًا ، والحزين غربة ، والأمير المخلوع والقتيل لأسباب تافهة . . وكل الأسباب تافهة ، مع أن السواعد قوية والعضلات حديدية ، والعيون نافذة والعقول واعية والقلوب واجفة . .

ولكن لماذا هى تافهة ؟

إنه الشعور بالضياع . والشعور بأنه لا جدوى من شىء . ولكن لماذا لا يصبر الشعراء على الواقع حتى يتضح وحتى يتجسد ؟ لأن الشعراء لا صبر عندهم . . كيف تطلب من عصفور ألا يرفرف ، ومن بحر ألا

يموج ، ومن عاصفة ألا تهب ، ومن نار ألا تخمد فجأة . ولابد أن يكون موتها فجأة ، فقد كان ميلادها كذلك ! .

فما الذى قاله ؟

الكثير قاله شعرًا . ولأنه شعر فهو رموز. ولأنها رموز فهى تشير إلى المعانى ولا توضحها . . فالشعر أصابع صغيرة لامعة بديعة تهمس من بعيد إلى المعانى الكبيرة . .

ولكن لرمنتوف قال الكثير فى رواياته وقصصه القصيرة . وأروع رواياته وأكثرها دلالة عليه وعلى عصره فى منتصف القرن التاسع عشر رواية اسمها « بطل هذا الزمان » ـ إنها خمس قصص قصيرة مستقلة ولكن مترابطة . . فالقصتان الأولى والثانية تتحدثان عن البطل وكيف يراه الناس من الخارج والقصص الثلاث الأخرى صورة البطل كما يرى هو نفسه . . والبطل هو الرواية ، والرواية هو الشاعر نفسه . . وإن كان يحذرنا فى المقدمة أنه ليس المقصود . ولكن الشعر هو أدب السيرة الذاتية أو هو أدب الاعتراف . . والأدب كله اعتراف . فهذا النفى يؤكد أنه الشاعر نفسه . .

والقصص يرويها الشاعر على أنها مقتطفات من مذكراته . . فهى مقتطفة مقتطعة مقتلعة من الذكريات . . فقد أوقف مسار الذكريات وانتقى ما يراه مناسبا فى الدلالة عليه ، والإشارة إليه . . وأبطاله فى هذه القصص : أوراق ساقطة على أرض جافة . . أو فى مياه ضحلة . . أو هى صفحات مكتوبة مطوية . . امتلأت بالكلام والتوى الكلام بعضه فوق بعض . . التوى وتكدس . . هذا هو الإنسان الروسى فى زمانه ـ وفى زماننا أيضًا ! وكل أبطاله هم صور اجتماعية نفسية لكل مواطن معاصر له ولنا أيضًا !

القصة الأولى تبدأ مع الخريف البارد ، الجليد والأوراق الصفراء الميتة . . والمناسبة حفل زفاف . وفى حفل الزفاف تظهر أميرة جميلة يتنافس

عليها الشباب ويتراهنون . . ويعلن أحدهم أنه سوف يعطى أخته لمن يكسب الرهان . والرهان هو أن يحصل على الحصان الذى يملكه أحد اللصوص . . ويكسب الأميرة واحد سرق الحصان . ويجىء صاحب الحصان ويقتل أخا الأميرة الجميلة ثم يخطف الأميرة هاربا وطاردوا اللص . وقتلوا الأميرة !

والأميرة وهى تموت يضحك أحد الشبان سعيدًا بكل ذلك ؟!

وفى إحدى القصص ذهب البطل إلى أحد الفنادق ، فاستقبله شاب أعمى وأعرج . شخص يرحب بأى زائر جديد ، ولكنه لا يعرف قيمة البطل ولا ثروته ولا قدرته . . والبطل يكره المرض والضعف والفقر . . ويجاهر بذلك ولما عرف أن الفندق ليس به تمثال واحد للمسيح تشاءم من ذلك . . ثم قاده الأعمى إلى الشاطئ فرأى منظرًا غراميًا : فتى وفتاة جميلة . ثم رأى هذه الفتاة فى الفندق . . ودعاها إلى رحلة فى زورق فى البحر وحاولت أن تقتله . ولكنه هو الذى ألقى بها فى البحر . . وعندما عاد إلى الشاطئ كانت قد سبقته وراحت تتحدث إلى رجل آخر . وعلى الشاطئ وجد الرجل الأعمى يحمل حقيبة ملابس هذه الفتاة . وعاد البطل إلى الفندق ليجد أن كل ملابسه وسيفه وأمواله سرقت !

ويعلن البطل فى قصة أخرى : إن هذه الحياة العاقلة الجميلة لا تناسبنى !

وفى قصة يسخر من تواكل المسلمين وإيمانهم بالقضاء والقدر . . وأراد أحد المسلمين أن يؤكد كيف أنه يستسلم لقضاء الله وقدره ، فصوب مسدسًا إلى رأسه . . وهو يقول : إن كان الله يريد لى الموت انطلقت الرصاصة الوحيدة إلى رأسى . . وإن كان يريد لى الحياة فلن تخرج من المسدس رصاصة . وضغط على الزناد ولم تنطلق الرصاصة . . ثم صوب المسدس على قبعة معلقة وأحرقتها . .

ويقول البطل : صحيح إن الرصاص لم ينطلق ولم يصب رأسه ، ولكنه رأى الموت لونا شاحبا ورعبا فى عينيه !

وبعد نصف ساعة أطلق عليه رجل مخمور النار ، فقتله . . والمعنى . أنه أراد أن يقتل نفسه فلم يستطع ، ولكن آخر قد قتله عن غير قصد فموته مكتوب عليه منذ ولادته . وشكل الموت ومكان الموت وزمانه !

وفى إحدى قصائد لرمنتوف يقول ساخرًا من هذه الفكرة .

إذا ما ذهبت إلى قريتى
قل لأهلى : إننى كنت
فى الميدان فانطلقت رصاصة
وتصادف وجود رأسى
فى طريقها . فأصابتنى
فمت سعيدا من أجل
حياة قيصرنا العظيم ؟!

يقول لرمنتوف عن كل شعراء الحزن ، وأمراء القلق ، وضحايا الصدفة . . بين السماء والأرض .

ملاك طائر فى زرقة الليل
يغنى وهو يرفرف
والقمر والنجوم مسحورة ببهائه وروائه
يغنى مع الطبيعة ولها بعيدًا
فى جنات الله ، يغنى عظمة الله
فى صوت حزين شجى
بلا خوف ولا زيف
فى ذراعيه يحمل روحه إلى
الأرض المظلمة بالخطايا

الأغنية تنطلق من روحه
بلا كلمات ولكنها عميقة
وبعد أن هبط على الأرض
أحست الروح أنها غريبة
ممزقة النزوات فاختنقت
الأغنيات فى أحزان الأرض وويلاتها !

وكأن الشاعر لرمنتوف أراد « توطين » وجدانه وخياله فكتب قصصا شعبية قوقازية » بعنوان (إسماعيل بك) و (الحاج إبريق) وجعل منها قصائد طويلة . . ولكنها جاءت مثل أشجار عالية وارفة ولكن جذورها على سطح الأرض . . فلا هى فى الأرض ولا هى فى السماء . .

وأجمل المعانى وأكثرها إلحاحا وتكرارًا على وجدانه : قصة طفل خطفوه وحبسوه فى أحد الأديرة . ولكن الجدران لم تخرس صوته ، والسماء لم تنكر صداه ، والأرض لم تلفظ دموعه . .

ويقول : إننا الرهبان الثوار . . إننا العفاريت فى القماقم الزجاجية ترى وتقول ولكن أحدًا لا يسمعنا . . ولكن الزجاج لم يحجب الرؤية : أن نرى وأن يرانا الآخرون . !

هذا الطفل المحبوس فى دير قد هرب ، ثم عاد إلى بلدته ليجدوه ميتا على أرضه . . خرج من بلدته وعاد ليموت فيها ـ هذه الدائرة المفرغة التى يعيشها كل حزين غريب فى زمانه وغريب عليه . .

* * *

فمن أنت أيها الأمير المخلوع فى القرن التاسع عشر ، والمواطن العادى فى زماننا . . والمواطن العادى الذى هو ألوف الملايين هو أمير هذا الزمان فمن أنت ؟

يقول : أنا القوى الأعرج . . أنا القادر على تحقيق كل شىء لا قيمة

له . . أنا الذى أملك قوة تنقلب ضدى . . أنا صاحب السهام المرتدة . .

قل لى من أنت ولكن بصورة أوضح . .

يجيب : أنا الذى عجز تمامًا عن اكتشاف رسالتى فى هذه الحياة . . أنا الذى لا أكف عن الكلام . . ولكن ما المعنى ؟! أنا الذى أحاول أن أقتلع المعانى من تفاهة الأيام . . ولكن ما الهدف ؟ إننى عجزت تماما عن أن أجعل لى رسالة . أنا المسكين فى يد القدر أقطع الرقاب بلا جريمة ، وبلا غضب ولا أسف ! أنا الذى ولدت فى هذا القرن لكى أعيش فى قرون قادمة وتحت أسماء لا نهاية لها . . أنا فيضان اليأس . . أنا إعصار الفراغ . . أنا احتشاد الغضب النبيل : رماده وصداه . . أنا أنت ، ولكنى أكثر شجاعة على مواجهة الموت ، وأكثر احتقارًا لكل ذلك !

من قوة العبث إلى عبث القوة
يا قلب
لا تحزن كثيرًا جدًا !

من أربعين عاما كانت للرئيس جمال عبد الناصر عبارة يصف بها حاله هو وزملائه الثوار . قال : كنا مثل ست شخصيات تبحث عن مؤلف وهى عنوان إحدى مسرحيات الأديب الإيطالى بيراندللو . .

أى إنه كان جاهزًا مستعدًا للظهور على المسرح ، ولكن كل الذى ينقصه هو أن يجد مؤلفا يكتب له نصا مناسبا . والنص المناسب هو الذى يصور آماله وآلامه أمام جمهور أشد قلقا على أن يتفرج على المسرح بتشخيص من شباب . . ثائر كافر بما وصلت إليه مصر . .

وكان المؤلف هو جمال عبد الناصر . .

والنص الأدبى الذى كتبه عبد الناصر لم يكمله على الورق . وإنما أكمله على الواقع . . وترك النص الأدبى للمتفرجين يكملونه على هواهم . . أما هو فانشغل بصياغة القلق الوطنى والأمل القومى . .

وتعددت وتنوعت النصوص بعد ذلك وكذلك الشخصيات

والمتفرجون . . ولم نعد بعد ذلك فى أواخر الخمسينيات قادرين على أن نميز بين الكاتب والمتفرج والممثل . فمن الممكن أن ندير ظهورنا إلى المسرح ونتفرج على المتفرجين . . ومن الممكن أن نظهر على المسرح ونشترك فى التأليف الفورى والارتجال المباشر !

وفى نفس الوقت كانت مسارح باريس تعرض أشكالا وألوانا من المسرح الذى عرفناه باسم (مسرح العبث) . وترجمناه فى مصر خطأ بمسرح اللامعقول . لأنه مسرح معقول ومنطقى وفلسفى وله معنى وله أول وآخر . . وكانت المسرحيات من تأليف عدد من المهاجرين إلى باريس . . والذين يتكلمون اللغة الفرنسية كلغة ثانية : بيكت الإيرلندى ويونسكو الرومانى وارابال الأسبانى وشحاده السورى . . وهؤلاء الأجانب عندهم مشكلة هى اللغة . . فاللغة غريبة عليهم والجمهور أيضًا . وهم يشعرون بأن اللغة غير قادرة على نقل معانيهم . . أو أن اللغة قادرة ولكنهم غير قادرين . وهذا العجز جعلهم يشعرون بالغربة مرة أخرى . . فهم غرباء حتى إذا لم يتكلموا فإذا تكلموا فهم أكثر غربة . .

ومعنى أنهم غرباء : أن المسافة كبيرة بينهم وبين الناس . . كان الناس بعيدين يرونهم ولا يسمعونهم ، وإذا سمعوهم ، فلا يفهمونهم . . وبدلا من أن يحاول هؤلاء الغرباء أن يتقنوا اللغة الفرنسية ، فإنهم يشعرون بأنه لا أمل فى أن يسمعهم أحد . . ولا أمل فى أن يفهمهم أحد إذا استمع . . ثم لا جدوى من التعبير والإفهام والاستمرار فى الكلام . .

فالناس جميعا غير قادرين غرباء حتى فى بلادهم . . فلا كلام بين الناس ولا حوار . . ولا هدف ولا أمل . . فقد ولد الإنسان غريبا ليعيش أغرب ويموت وكأنه لم يولد !

والعبث معناه : النشاز فى الموسيقى . .

فالنشاز موسيقى أيضًا . .

ومعناه أيضًا : أنه لا معنى . . ولا فائدة . . ولا جدوى . . ولا قيمة . . ولا أمل . . ولكن العبث ليس معناه : الكلام الفارغ . . حتى لو كان الكلام يبدو فارغًا فهو ليس كذلك . . والأدباء عندما يتحدثون عن الفوضى مثلا ، فإنهم يتكلمون عنها بنظام ومنطق . . تماما مثل دراويش نجيب محفوظ . . فإنهم جميعًا فى حالة من الهذيان ولكنه هذيان مدروس . . هذيان قد وضعه المؤلف فى المكان المناسب وليخدم معنى فى العمل الفنى كله . . ومثل رواية (العبيط) لدستويفسكى . . صحيح أن البطل عبيط ولكن المؤلف درس البطل بمنتهى العقل والذكاء والحكمة . .

وفى الأربعينات انتقلت إلينا الفلسفة الوجودية . . كانت فى أوروبا تعبر عن التعويض الروحى لما أصاب الناس بسبب الفلسفات الشمولية . الشيوعية والنازية والفاشية . . فقد قامت الدولة على جثث الأفراد . . وسحبت الحريات الشخصية وكدستها فى بنوك الأحزاب السياسية . ثم انهارت هذه النظم كلها . . وتساقطت أنقاضها على وجدان المفكرين وقلوب الشعراء . . فجاءت الفلسفة الوجودية تؤكد أن الأصل هو الفرد . وأن الفرد هو الحرية . وأن الحرية هى الاختيار المستمر لكل شىء . والذى لا يختار فليس حرا . والذى ليس حرا فهو غير مسئول . والذى ليس مسئولا فوجوده عبث ودنياه عبث أيضًا !

وبعد الوجودية ظهرت مسرحيات العبث فى مصر فى الستينيات . . نقلناها عن المسارح الفرنسية . . موضة جديدة مع موضة (النيولوك) أى الفستان الطويل إلى ما تحت الركبة وهو من تصميم كريستيان ديور . . والفساتين الطويلة تحتاج إلى أقمشة أكثر . ورغم أن الناس لا يجدون ما يأكلونه ، ولكن هذا هو حكم القوى على الضعيف . والقوى هو مصمم الأزياء . والرأى لباريس ، وليس على العواصم الأخرى إلا أن تطيع . فسمعت وأطاعت . . وما طالت الفساتين إلا لكى تقصر بعد ذلك فى موضة « المينى جيب » . . والميكروجيب . . وعلى الرغم من أن الأقمشة

قد توفرت ، فإن الفساتين قد استقرت فوق الركبة . . وفوق فوق الركبة . ولا يزال الحكم للأقوياء على الضعفاء . . والأقوياء هم مصممو الأزياء والضعفاء هم الرجال الذين تسحبهم زوجاتهم طائعين ضائعين إلى محلات الأزياء !

وكذلك ظهر مسرح العبث فى مصر ـ صدى للمسرح الفرنسى .

ولم يكن ذلك صدى فقط . . وإنما كان يصور واقعا نفسيا لضياع سياسى واقتصادى ثم انهيار عسكرى بعد ذلك . . ففى الستينيات حارت العقول وتحيرت الأقلام فى الأيدى ، وزاغت العيون بين النظر إلى المسرح وبين النظر إلى المتفرجين . ولم يعرف أحد بالضبط أين يجلس المؤلف وأين تظهر الشخصيات الست التى تبحث عنه ؟! .

إن ضبابا من اللامعنى واللاجدوى واللامنطق قد شاع بين الأشياء والناس ـ أى فى العلاقات الإنسانية . وهذا المعنى هو الذى أعطى لمسرح العبث حق الإقامة فى مصر . . ثم أعطاه الجنسية المصرية . فهو مصرى بين مصريين . .

وظهرت فى القاهرة مسرحية « فى انتظار جودو » لصمويل بيكت . وهى محاورات بين رجلين يجلسان على المسرح فى انتظار واحد ثالث أن يجىء . ولكنه لا يجىء . وعلى الرغم من أنه لم يظهر على المسرح فانتظاره وتوقعه وضرورة أن يحضر يجعل هذا الشخص الثالث موجودًا طوال الوقت . .

فهو الغائب الحاضر . . أو هو الفريضة الغائبة . . أو هو الله . . أو هو المعجزة . ولكنه لا يجىء !

وظهرت مسرحية (الكراسى) للأديب يونسكو وعلى المسرح رجل وزوجته . عندهما حفلة ويتوقعان مجىء الضيوف . ضيوف كثيرون . وقد امتلأ المسرح بالمقاعد الخالية انتظارًا للضيوف . ويجىء الضيوف . . هذا ما

يقوله البطلان . ولكننا لا نرى أحدًا . ثم يطلبان إلى الضيوف الوهميين أن يجلسوا بعد الترحيب الشديد . . ويمتلىء المسرح بالضيوف الذين لا نراهم . .

ويرى المؤلف أن أعظم تحية من الممكن أن توجهها له هو ألا تذهب لمشاهدة المسرحية . . فى هذه الحالة فقط يشعر المؤلف بالامتنان العظيم . . لأنه أراد أن يجعل المسرحية صورة للواقع . . فعلى المسرح مقاعد خالية وفى الصالة مقاعد خالية . وهذا بالضبط ما أراد أن يقول . . أراد أن يقول : إنه لا أحد هناك يسمع ويرى . . والذين يسمعون لا يرون والذين يرون لا يسمعون . . هناك فراغ . . هناك مسافات . . هوة . . بين كل الناس . . هناك غياب يزداد اتساعا وعمقا وكثافة وألما !

وفى ذلك الوقت كانت لى مسرحية اسمها (الأحياء المجاورة) بطولة حمدى غيث وسناء جميل . . اثنان فقط على المسرح ويتوقعان طوال ثلاثة فصول أن يجىء أحد . . أن يدق الباب أحد . . فهناك جريمة قد ارتكبت ولكن العالم الخارجى يصلها عن طريق الراديو . .

أو وقع أقدام على السلم أو أمام الباب . . والحوار عنيف بين الرجل وزوجته . . أحدهما يحاكم الآخر ويدينه . . ولا ينقصهما إلا التصديق على هذا الحكم بالإدانة من شخص ثالث أو رابع أو المجتمع كله . . ولكن الجريمة قد اكتملت . والحكم قد صدر . ولا أحد يجىء !

ثم أصدر توفيق الحكيم مسرحية (ياطالع الشجرة) . . والعنوان مأخوذ من أغنية فولكلورية عبثية . . الأغنية تقول « ياطالع الشجرة هات لى معاك بقرة تحلب وتدينى « بالمعلقة » الصينى » بقرة على شجرة ينتقل لبنها فى ملعقة صينية !

وفى رواية (يوميات نائب فى الأرياف) لتوفيق الحكيم تجد واحدًا يغنى ويقول : ورمش عين الحبيبة يفرش على فدان ـ رمش عينيها يغطى فدانا

فكم يكـون حجم عينيهـا وشفتيها ورأسهـا وحجمها كلهـا . لا تهم هذه الحسابات ولكن الصورة الجميلة العبثية هى التى تهم . .

وفى نفس الـوقت غضب طه حسين على عبـث توفيق الحكيـم وقال لى أيامها ونحن نتفرج على مسرحية أخرى لتوفيـق الحكيم بطولة يوسف وهبى اسمها (الأيدى الناعمة) : إن أخانا توفيق الحكيم يريد أن يخالف الناس ليعرفـوه أكثر . . وكل هـذا الذى جاء بـه أخونا الحكيـم قد طالعنـاه عند الشعراء الفرنسيين : بودلير وفرلين ولتريومون . . كلهم كانت لهم مثل هذه الهلوسات . . والفارق بينهم وبين الحكيم أنهم أخف دما وألطف !

والأستاذ العقاد هاجم الفلسفة الوجودية . ووصفها بأنها مريضة . لأن العقاد يـرى أن الذى ليس منطقيـا فلا وجـود له . . وأن الذى لا يـدخل العقل فإنه يخرج منه . والفلسفة الـوجودية لا تحل مشكلة القلق وإنما هى تزينـه للناس . ولا تـؤمن بـالحياة أسلـوبًا وهـدفًا وإنما تـدعو النـاس إلى الموت . .

ويتسـاءل العقـاد : كيـف أحترم من يقـول لى دائمًا : اتـرك مكـانـك واذهب إلى المقابـر وادفن نفسك حيا . كيـف أحتفل بمن يريـد أن يجعل حياتى جنازة أنيقة ودمارى هدفا لكل حياتى !

وانحسرت موجة العبث . .

وتآكلت الفلسفة الوجودية أيضًا

* * *

وفجأة دعانـى صديقى اللواء محمـود صاحب إلى مشاهـدة مسرحية . المسرحية والشخصيات والمؤلف والمتفرجـون كلهم فى (سجن مصر) . جو كئيب رهيب . عذاب فى عـذاب . . جلست فى مسرح غسلوه . . غسله المتفرجـون والممثلون والمؤلفون . . ووضعوا مقـاعدنا فى الصـف الأول وهـم جلسوا وراءنا . . وكـانت حاجتى إلى الهرش فظيعـة . . فعيونهم سكاكين

وابر تنغرز فى جسمى . . فهم ليسوا متفرجين عاديين . . . ليس صحيحًا أن المسرح أمامى . . المسرح ورائى . ومهما حاولت أن التفت إلى الأمام . فالذى ورائى أعنف أشنع أبشع . . وإذا حاولت أن ابتسم فعلى أى شيء؟ على الذى أراه ، أو على الذى أتخيله ورائى . . أو على أننى جئت من عالم آخر إلى هذا العالم وراء الجدران الباردة والزنازين المظلمة . . إن سعادة هؤلاء السجناء أنهم بعيدون عن الجدران الباردة . . إنهم يتمنون كل الذى لا أتمناه . يتمنون أن تظل المسرحية معروضة أياما . . ففى هذه الأيام حريتهم ورد اعتبار لهم . . فقد جعلتهم المسرحية بشرًا وليسوا حيوانات كسيرة ذليلة سجينة . .

وتلخبطت كل المعانى فى رأسى . . ولم يستقر المقعد تحتى . . فأنا أريد أن أهرب . . فمن الذى يستطيع أن ينظر فى مئات العيون البليغة الألم والأرق والقلق . .

والمسرحية كان اسمها (افرح ياقلبى) ــ تصور هذا العنوان . . والمسرحية تروى حكاية أمل . . واحد تقرر الإفراج عنه . وبدأ يودع الناس فى السجن ويودع الحراس وكلمة من هنا . . وكلمة من هناك . . وتوجيه ونصيحة . . وتأكيد مستمر للتوبة . . توبته عن قراءة الصحف ابتداء من صفحة الوفيات . . أعلن البطل أنه لن يقرأ الصحف بعد اليوم . . وعلى باب السجن وجد أهله يبكون ولم يجرؤ واحد أن يقول له عن سبب البكاء . . لقد ظن أنهم يبكون سعادة به . . ولكن هناك فرقا بين دموع الحزين ودموع الفرحان . . كلها دموع . . ولكن الوجه هو الذى يشرح معانى الدموع . . إنهم فى غاية الحزن . ولم يفهم . ولم يقل لأحد شيئًا . وإنما وجد أحد أخوته يعطيه الصحيفة التى انفتحت على صفحة الوفيات . . لقد أصيب بالرعب وعاد هاربًا إلى السجن . . وهو يقول إن هناك إصرارًا على أن أبقى فى السجن !

والمسرحية هى قمة الوجودية والعبثية معا . . إنها نسيج من الوجودية

ومن العبث معا . . من الحرية المؤكدة ، وعدم جدواها المؤكد أيضًا !

* * *

هل انحسرت الوجودية والعبثية معا لأن الواقع أقوى من المسرح ؟

هل لأن الأشخاص الذين يبحثون عن مؤلف قد أصبح عددهم مئات . . ملايين المؤلفين . . وأن المؤلفين أغلبية ساحقة . ولذلك كان لابد أن يظهروا هم على المسرح معبرين عن الأغلبية . . وما داموا مؤلفين يمثلون على المسرح . فمن حقهم أن يرتجلوا كل يوم كلاما . . وبذلك يدوسون قواعد المسرح والمسرحية . . ثم إن القواعد هى من صنع المؤلفين . . فالمسرح ملك لهم . .

ولما ضاقت المسارح عن الناس . . تحولت بيوت الناس إلى مسارح . . كل بيت مسرح . . وفى كل بيت تدور المحاورات والخناقات . . وكلها تنويعات على عبارة نسبت إلى سعد زغلول باشا قالها وهو يموت . العبارة مفيش فايدة !

ولم يختف العبث إلا على أنه مسرح يتفرج عليه الناس . . ولكنه تسرب إلى بيوت الناس دخانا . . غازًا : . ترابًا . . هبابا . إن العبث لا يزال هناك بعيدًا عن المسرح ولكنه فى عقول وقلوب الناس . . وفجأة ظهر العبث بصورة أخرى .

ظهرت المسرحيات الكوميدية الهزلية . . مسارح الهأهأة . . مسارح الاسانوك . . ورقصنى ياجدع . .

وكلها مسرحيات تضحك بالقوى من الناس وعلى النفس أيضا . كلها ضحك وحشيش . . أو كلام كالحشيش . . وكلها نقد للناس . . وللشعب والحكومة . والناس يضحكون وسعداء بذلك . . ولكن هذه المسارح هى مخالفة صريحة لمعنى المسرح الكوميدى . . فالمسرح الكوميدى

هو الذى يجد فيه الناس عيوبهم ويضحكون عليها . . ويكون الضحك علاجا . . أى يشعر الإنسان بأنه أضحوكة . ويخجله ذلك . ويندم . ثم يقرر وهو فى المسرح ألا يفعل شيئًا بعد ذلك !

هذا هو التشخيص والعلاج المسرحى من أيام أستاذنا العظيم أرسطو أى من ٢٦ قرنا !

ولكن هذه المسرحيات الهزلية تسخر من الناس . والناس يسخرون من المسارح . فهى تقول وهم يضحكون . وينتهى كل شىء عند باب الخروج فكأنهم لا سمعوا وكان أحدًا لم يقل !

ومعنى ذلك أنه لا جدوى من النقد المسرحى . ولا هدف للضحك . وإن هناك اتفاقا غير مكتوب بين المؤلف والمتفرج هو : أننا نحن اثنان لسنا جادين . لا أنت جاد فى نقدك ولا أنا جاد فى عدولى عن هذه العيوب !

وبذلك يكون المسرح واقعيًا تماما : لأنه صورة من الناس . فالناس غير جادين . والمسرح أيضًا . والناس لا يرون أن هناك علاجا لأى شىء ولا أمل فى ذلك . والمسرح أيضًا .

وكما اعتادت المسارح على شتيمة الناس ، اعتاد الناس على تجاهل ذلك . .

فكأن المسارح ما قالت شيئًا ، وكأن المتفرجين ما سمعوا شيئًا . والمسافة شاسعة بين الشخصيات وبين المؤلف وبين المتفرجين . . كأن المسرح بلا ممثلين وكأن الصالة بلا متفرجين . . وكأن الممثلين يملئون الفراغ حتى يجىء شخص ما يقسم للناس على المصحف أنه جاد . . وأنه يعنى كل كلمة يقولها . وأن هدفه هو إصلاح حال البلد . . ولكن هذا الشخص لا يجىء ومهما أقسم للناس بأنه سوف يجىء ، فالمتفرجون يقسمون أنه لم يجىء وحتى لو جاء فسوف يظل غائبًا . وليس هذا قرار

المؤلف وإنما هو قرار الجمهور . . فالجمهور عاوز كده . . ولا رد لقضائه !

وهكذا ترى أن العبث فى مصر كانت له مراحل ـ وكلمة مراحل من أكثر الكلمات شعبية على ألسنة الحكام وهى أكثرها سخافة وفراغًا من أى معنى . .

مرحلة العبث الحزين ــ منذ كان جمال عبد الناصر يبحث عن مؤلف . .

ومرحلة العبث الضاحك ـ أى عندما قررت الشركات المسرحية أن تقدم للناس ما يريدون . فقدموا مسرحيات الهأهأة . ورفعوا أسعار التذاكر . ولكن هذا الارتفاع كان أكثر إغراء للناس بأن يذهبوا . . وأن يخرجوا مستريحين لأنهم ضحكوا على قدر فلوسهم . .

وشكا المثقفون من التهريج المسرحى الذى طال وانتشر وكسب الملايين . . ولكن الشركات المسرحية مضت فى تنافسها . فهى تمزج الفكاهة بالرقص الاستعراضى والرقص الفردى . . إنها تضيف إلى النكت شيئًا (فوق البيعة) . . فهى محاولة من أصحاب الشركات المسرحية فى إطالة عمر المسرحية . . وعلى المسرح الآن مسرحيات عمرها سبع سنوات وخمس سنوات . . إذن الجمهور يريد ذلك وعلى استعداد لأن يدفع كثيرًا . فنزولا على رغبة الجماهير قررت الشركات المسرحية أن تبقى وأن تستعد لمسرحيات جديدة وفيها إضافات جديدة . .

والرأى الآن كما كان أيام ياطالع الشجرة ، أن نكتفى بهذا القدر من الهلس ونبحث عن شىء جاد . . شىء يحترم المتفرج والقارئ . . أى لابد أن نلم المسرح والممثلين والمتفرجين . . كأن ضمير المسرح قد استيقظ وكذلك الممثلون والمثقفون . ولابد من عمل شىء .

فكان الشىء هو مسرحية (كاليجولا) للأديب الفرنسى كامى . .

ومسرحية كاليجولا هى إحدى قمم العبث فى الأربعينات فى أوروبا . . فبطل المسرحية هو الإمبراطور كاليجولا . . الذى يجسد لنا كيف تصبح القوة عبثا . .

فالمسرح إذن ـ قد انتقل من (قوة العبث) . . إلى (مسخرة العبث) . . وأخيرًا إلى (عبث القوة) . .

فالإمبراطور (نور الشريف) شاب قوى يفعل ما يشاء بالعقل والمنطق . فهو قد أضاف إلى قوته منطقا . فالمنطق قوة . والقوة منطق . وهو قادر على كل شىء . قادر غادر . ولا فرق بين القدرة والغدر . فهو يفعل ما يشاء عندما يشاء بمن يشاء وعلى النحو الذى يشاء . .

فكأننا ـ بوعى أو بغير وعى ـ عندما أردنا أن نصلح المسرح نقلنا العبث إلى أكثر المسارح أناقة وفخامة . . فكأننا قمنا بإحياء العبث بصورة من الأبهة . . وقدمنا عبثا جديدًا لإصلاح عبث قديم . . ودخل كاليجولا المنافسة غير المتكافئة مع عادل أمام ومحمد صبحى وسمير غانم وشريهان !

فما الذى تغير إذن ؟ . إن سعد أردش الذى كان يمثل قوة العبث صار مخرجا لعبث القوة . .

ونحن عندما قدمنا العبث فى الخمسينيات كان تقليدًا لأوروبا . . ثم توطينا للعبث فى مصر . . ولكننا الآن نؤكد أن العبث كان حقيقة . . وأن هذه الحقيقة لم نستوعبها فى ذلك الوقت . . ولكن بعد مضى أربعين عاما نؤكد أننا لم نكن عابثين بالعبث . . وإنما كنا مبشرين به . واليوم أصبح العبث واقعًا ممتدًا على الأرض وتحتها . حتى ظهر حقيقة مؤكدة . .

إذن نحن لم نكن جادين عندما سحبنا مسرحيات العبث من المسارح فى الستينيات . . فهى لم تنسحب . . وإنما انتقلت من وراء الكواليس إلى ما بين صفوف المتفرجين . . ثم إلى البيوت والمكاتب . . إلى الأقلام واللوحات والأغنيات والكباريهات أيضًا . .

كأننا أغلقنا المسارح الجادة وعلقنا عليها لافتة تقول : مغلقة للتحسينات . .

وجاءت التحسينات . فشكرًا لفاروق حسنى وزير الثقافة وللدكتور فوزى فهمى رئيس الأكاديمية . . فالتاريخ يكرر نفسه ولكن بأشكال مختلفة ولأسباب مختلفة . .

فلا تزال الشخصيات تبحث عن مؤلف . ولا يزال هذا المطلب نبيلاً . . ولكن هذه الشخصيات ليست جادة فى بحثها . . لأنها ليست فى حاجة إلى مؤلف . يكفى أن تظهر وتقول أى كلام . . فلم نصل بعد مؤلفين وممثلين ومخرجين إلى مرتبة الناس الجادين . . فى آمالنا وفى حرصنا على تحقيقها . . لا نحن صادقون مع أنفسنا ، ولا مع الجمهور . . وما دام الكذب والجبن والنفاق هواء يتنفسه الجميع ، فمن أين يولد النص العظيم . . القادر على شفاء النفوس . .

الحقيقة المؤكدة فى حياتنا هى : أننا حلوين قوى . . كده رضا !

* * *

إننى لا أمل النظر إلى اللوحة الوحيدة التى رسمها الفنان الكبير صلاح طاهر عن السلام سنة ١٩٧٨ . . لوحة ضخمة . . طويلة عريضة ألوانها من الأصفر الغامق والفاتح . . والبنى الناعم ولون الصحراء . . واللوحة تضم حشدًا من الناس رفعوا أيديهم إلى السماء . . الوجوه ليست واضحة ولا ملابس الإحرام التى يرتدونها . . ولكن سواعدهم هى أوضح ما فى الصورة . . وسواعدهم هى تجسيد لدعواتهم إلى السماء . . وفى السماء قرص أبيض . . لا هو شمس ولا هو قمر . . وإنما نوع من التجلى . . وقد تحولت شعاعات التجلى إلى حمامات بيضاء . . أسراب من الحمام . . وهذا الحمام لا يسقط فى الأيدى الضارعة إلى الله . . وإنما يتجه بعيدًا عن هذه الأيدى . . كأن دعوات الناس لم تبلغ السماء . . وكأنها عندما بلغتها

سقطت مرفوضة . . وأكبر دليل على ذلك أن الحمام قد ابتعد عنها . .

وكما إن الأيدى دعوات ضارعة ، فالحمام استجابات هاربة بعيدًا . . فلا الحمام اختفى ولا التجلى انطفأ ، ولا الأذرع انكسرت وانحسرت . . وإنما الدعاء مستمر . . والفيوض السماوية متدفقة . .

والكل فى انتظار (جودو) والتأمل المستمر فى هذه اللوحة هو تأكيد لهذا المعنى . . لهذا الأمل الذى عمره أربعون عامًا فى أن يظهر هذا المؤلف بيننا وعلى مسارحنا . . وألا يكون كاليجولا أبدًا ! .

محتويات الكتاب

كتب للمؤلف

(أ) ترجمة ذاتية

١ ـ فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ ـ عاشوا فى حياتى
٣ ـ إلا قليلا
٤ ـ طلع البدر علينا
٥ ـ البقية فى حياتى
٦ ـ نحن أولاد الغجر
٧ ـ من نفسى
٨ ـ حتى أنت يا أنا
٩ ـ أضواء وضوضاء
١٠ ـ كل شىء نسبى

(ب) دراسات سياسية

١ ـ الحائط والدموع
٢ ـ وجع فى قلب إسرائيل
٣ ـ الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل)
٤ ـ عبد الناصر ـ المفترى عليه والمفترى علينا
٥ ـ فى السياسة (٣ أجزاء)
٦ ـ الدين والديناميت
٧ ـ لا حرب فى أكتوبر ولا سلام
٨ ـ السيدة الأولى
٩ ـ التاريخ أنياب وأظافر
١٠ ـ الخالدون مائة ـ أعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
١١ ـ لعنة الفراعنة
١٢ ـ على رقاب العباد

١٣ ـ ديانات أخرى
١٤ ـ وكانت الصحة هى الثمن
١٥ ـ الغرباء
١٦ ـ الخبز والقبلات

(جـ) قصـص

١ ـ عزيزى فلان
٢ ـ هى وغيرها
٣ ـ بقايا كل شىء
٤ ـ يا من كنت حبيبى
٥ ـ قلوب صغيرة
٦ ـ شارع التنهدات
٧ ـ فوق الركبة
٨ ـ هذه الصغيرة (وقصص أخرى)
٩ ـ عريس فاطمة
١٠ ـ يوم بيوم
١١ ـ إنها الأشياء الصغيرة
١٢ ـ إلا فاطمة
١٣ ـ القلب أبدا يدق

(د) نقـد أدبـى

١ ـ يسقط الحائط الرابع
٢ ـ وداعا أيها الملل
٣ ـ كرسى على الشمال
٤ ـ ساعات بلا عقارب
٥ ـ مع الآخرين
٦ ـ شىء من الفكر
٧ ـ لو كنت أيوب
٨ ـ يعيش . . يعيش
٩ ـ الوجودية
١٠ ـ عذاب كل يوم
١١ ـ طريق العذاب
١٢ ـ وحدى . . ومع الآخرين
١٣ ـ ما لا تعلمون
١٤ ـ لحظات مسروقة
١٥ ـ كتاب عن كتب
١٦ ـ أنتم الناس أيها الشعراء
١٧ ـ أيها الموت . . لحظة من فضلك
١٨ ـ أوراق على شجر
١٩ ـ فى تلك السنة
٢٠ ـ دراسات فى الأدب الأمريكى
٢١ ـ دراسات فى الأدب الألمانى
٢٢ ـ دراسات فى الأدب الإيطالى
٢٣ ـ فلاسفة وجوديون
٢٤ ـ فلاسفة العدم

(هـ) رحـلات :

١ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم

٢ ـ بلاد الله خلق الله
٣ ـ غريب فى بلاد غريبة
٤ ـ اليمن ذلك المجهول
٥ ـ أنت فى اليابان وبلاد أخرى
٦ ـ أطيب تحياتى من موسكو
٧ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية
١ ـ مدرسة الحب
٢ ـ حلمك ياشيخ علام
٣ ـ مين قتل مين
٤ ـ جمعية كل واشكر
٥ ـ الأحياء المجاورة
٦ ـ سلطان زمانه
٧ ـ حقنة بنج
٨ ـ العبقرى
٩ ـ الكلام لك ياجارة

(ز) مسرحيات مترجمة
* للأديب السويسرى فريدريش ديرنهات
١ ـ رومولوس العظيم
٢ ـ زيارة السيدة العجوزة
٣ ـ زواج السيد مسيسى
٤ ـ الشهاب
٥ ـ هى وعشاقها
* للأديب السويسرى ماكس فريش
١ ـ أمير الأراضى البور
٢ ـ مشعلو النيران
* للأديب الفرنسى جان جيرودو
١ ـ من أجل سواد عينيها
* للأديب الأمريكى آرثر ميللر
١ ـ بعد السقوط
* للأديب الأمريكى تنسى وليامز
١ ـ فوق الكهف
* للأديب الأمريكى يوجين أونيل
١ ـ الامبراطور جونس
* للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو
١ ـ تعب كلها الحياة
* للأديب الفرنسى اداموف
١ ـ الباب والشباك
* للأديب الأسبانى أرابال
١ ـ ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية
١ ـ الحنان أقوى
٢ ـ من أول نظرة
٣ ـ طريق العذاب

رقم الإيداع ٣٦٨٤ / ٩٤
I.S.B.N 977- 09 - 0207 -1

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



كيمياء الفضيحة!

كان الموسيقار الروسى « برودين » يحب القطارات والسكك الحديدية . . وكان يعرف مواعيد القطارات الداخلية والخارجية من موسكو . . وفى يوم تأخر القطار عن موعده . . فسارع إلى المحطة ليرى ماذا جرى . . وفوجئ الناس بأن الموسيقار العظيم قد نسى أن يرتدى البنطلون .

إنها لحظة أحس فيها الموسيقار أن الأرض قد انفتحت تحته ولكنه لم يقدر على أن يدفن نفسه فيها بعيدًا عن عيون الناس . .

والأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار تقول : إن الشعب الفرنسى قد فضح نفسه عندما أحب بريجيت باردو . . فهى ليست إلا طفلة وليست امرأة ناضجة . . فالشعب الفرنسى ـ إذن ـ مريض الذوق يحب الأطفال وليس الأنثى الناضجة . . وتقول : إن الشباب فى فرنسا فضح نفسه مرة أخرى عندما وقف بالألوف يتفرج على تابوت توت عنخ آمون وهو الملك الطفل الذى لا قيمة له فى تاريخ بلاده . . فقط لأنه صاحب أول مقبرة وأول تابوت وجدوه سليما . . ووقوف الشباب الفرنسى بالألوف أمام التابوت يدل على أنهم ينظرون إلى واحد مثلهم . . لا هو رجل ولا هو طفل . . إنه وسط بين الطفولة والرجولة . . تماما كشبان هذه الأيام !

وفى البدء ضحكت الأفعى على أمنا حواء . . وأمنا حواء ضحكت على أبينا آدم . . ونزل الإنسان إلى الأرض . . وقتل واحد من أبنائهما أخاه وقال : وأنا مالى . . أى لابد أن أحدًا غيره هو الذى قتله . . ولما جاء الغراب يدفن غرابا آخر. أحس القاتل قابيل إنه أجهل من غراب . . فلم يعرف كيف يدفن أخاه . .

كاتبنا الكبير أنيس منصور عنده هذه المقدرة الفذة على النظرة الثاقبة . . إلى الأشياء والناس . . والمعانى . . أصعب المعانى وأعقدها . . فإذا هى واضحة سهلة . . يتوهم كثير من الناس أنها هى هكذا سهلة بسيطة . . والحقيقة إنه هو الذى جعلها كذلك . . ومن هنا كانت [illegible] الصعبة جدًا على غيره . . السهلة له والممتنعة عن الآخرين